رواية: غرام وانتقام عربي

بقلم: وداد جلول

مقدمة

في قلب دمشق العتيقة، حيث نسائم الياسمين تختلط بذكريات الماضي وتغلفها روح التاريخ والحضارة، نُلقي بكم في ثنايا قصة غرام، الزوجة التي وجدت نفسها في قلب فضيحة تهز أركان وجودها. "غرام وانتقام عربي"، رواية تعبق بالأسرار والصراعات الهوجاء، حيث يصبح الحب، والعدالة، والخيانة ألغازًا متشابكة يصعب حلها.

تُرى، هل تنجح غرام في تبرئة نفسها وإعادة بناء حياتها مع عربي، الرجل الذي يقدم لها فرصة جديدة من خلال الزواج والثقة المطلقة؟

حكاية نبضها حب تلوثه خيانة جذرية، وتحجبه غمامة الألم والغفران. يرسم قدر غرام لوحة العذاب التي تصارع فيها سرطان الكلية؛ لتجد في عربي منقذها وطوق نجاتها. فبكلية تُهدى، ووعد بالحياة يُقطع، يُحيل عربي جسده جسراً للحياة، وغرام المنقذة من الموت تهرب مع عشيقها تاركة وراءها قلبه المنكوب.

يخوض عربي معركة شرسة بين الحب الذي تركه خلفه حينما استغاثت به غرام، وبين الخذلان الذي نُسج من حوله؛ فكيف له أن يوازن بين هوى القلب وصرخات الخيانة؟ إنها رواية تستعرض براعة الحب ودموع التضحية، وتنفض الستار عن نيران الانتقام التي تُكتم خلف الصمت والصبر.

الفصل الاول

سيارة تنحدر عبر شوارع المدينة المتناثرة بأضواء خافتة، والتي تتسلل من مصابيح الشوارع والمنازل. تتوقف السيارة أمام منزل صغير وهادئ الطابع، تظلله أشجار الباحة الأمامية حيث تنتشر مجموعة من الشخصيات بمظهرها العفوي وملابسها الأنيقة.

يترك باب السيارة مفتوحاً ومنه يتدلى "شهاب"، شاب في زهوة عمره وإن كانت ملامحه الصارمة تعكس جدية غير معتادة. في وجوه الحاضرين تلوح علامات الدهشة مصحوبة بصمت ملؤه الحذر والاستفهام. يخطو "شهاب" بخطوات ثابتة نحو "غرام"، زوجته الواقفة عند مدخل الدار، وعلى وجهها تظهر علامات قلق تتعاظم مع اقترابه.

ترتسم على وجهه ابتسامة خافتة لا تبطن العاصفة الغاضبة المستعرة في باطنه. فيقول شهاب:

"لطالما راودتني صورة هذا البيت وهي تضيء بمعاني الكرامة والأخلاق. لكن، يبدو أن الأقنعة على وشك السقوط هذه الليلة، وواقع مرير على وشك الكشف."

يرد والد غرام (إبراهيم) بصوت مضطرب:

"ما الذي تلمح إليه يا شهاب؟"

شهاب يُوجِّه أصابع الاتهام بقوة:

"ألم تعلموا بما فعلته غرام؟ ألا تعرفوا كيف جلبت العار لنا جميعاً؟"

كأنما كانت كلماته زلزالًا يقسم الأرواح، تشيح "غرام" ببصرها صوب عائلتها. أعينهم تفصح عن ألف حكاية بصمت.

شقيق غرام (أنس) ينهض ووجهه متشنج:

"أي عار تتحدث عنه ياشهاب؟ ماذا فعلت غرام؟"

شهاب:

"أمامكم جميعاً أقف اليوم لأكشف النقاب عن حقيقةٍ موجعة؛ غرام، بكل أسف، لم تحفظ ودّ الحياة الزوجية، فقد تجاوزت حُرُمَات الصِّدق والإخلاص."

أنس بثبات:

"هذه اتهامات جسيمة يا شهاب، ولا يجب أن تُطلق بلا دليل. غرام ليست فقط أختي بل هي جزء من هذه العائلة، وعرضها لا يُمسّ بكلمات مرسلة في الهواء. إذا كان لديك دليل على ما تقول فلتقدمه هنا والآن!"

يعقب "شهاب" هائجاً بحدة:

"أمتلك بيَن يَديَّ براهين وأدلة تؤيد كل حرف منطوق من فمي، لكنني لا أنوي إضاعتها هباءً! الوقت سيأتي لكشف الستار عن الحقيقة، وحينها، بعينيكم الاثنين سترون ملامح الكذب والحقيقة. صمتي ليس خوفاً، إنما هو صبر للصيد في وقته."

تبتلع "غرام" دموعها، وهي تحتضن ذاتها وكبرياءها الذي أُصيب:

"لم أرتكب ما هو عار... لم أخل بالعقد."

ينكمش قلب "شهاب" للحظات، ولكنه يبقى منيعاً، وبينما تكاد الدموع تسلب منه ثباته، يلوح بنظرة بها الوداع بين الحضور، ثم يترك المكان بحزم.

تهب رياح صاخبة، يتطاير الستار ويُسمع صوت الباب ينغلق بقوة. أحد الأطفال يبكي، والنساء يهمسن بقلق، فأصواتهن كلمات مبهمة تسبح في الهواء.

الليل يلفّ المدينة والنجوم تتلألأ، والصمت المخيم على الدار يُرَوّع أرواح أهلها.

تتهادى الموسيقى الناعمة بين طيات الليل، وتنعكس النجوم المتلألئة على عيون مليكة وهي تجلس مقابل عربي في تلك الزاوية الهادئة من المقهى. يُحيط بهما أجواء ساحرةٌ تبعث على الألفة والتواصل الروحي، وكأن العالم اختصر على طاولتهما الصغيرة.

ينهال حديث عربيٌّ عليها بوعود الزواج ويعكس كلماته روح التفاؤل والبناء للمستقبل، وهو غافلٌ عن العاصفة التي تهدد أفقه. يقول بكل امتلاء الثقة وعذوبة العشق:

"مليكة، أسكنتكِ قلبي والآن حان الوقت لنؤسس عالمنا الخاص. أحلم بصباحاتٍ تجمعنا ومساءاتٍ تحتضن ضحكات أطفالنا، أحلم بمنزلٍ يملؤه الحب والدفء، حيث نواجه معاً تحديات الحياة."

تومض ابتسامةٌ مليكة في قلب الظلام، وتقول بسعادةٍ مشرقةٍ:

"وأنا أيضاً، ليس لدي شيءٌ أتوقُ إليه أكثر من بناء هذا المستقبل معك، جنباً إلى جنب."

فجأة، يُقطع الوقت الجميل برنين هاتف عربيٍّ الذي يغدو واجباً لا يمكن تجاهله. بحركةٍ آسفةٍ يعتذر، ويجيب على المكالمة التي تعود إلى شهاب، وجهه يتحول من عرضٍ أملٍ إلى نظرةٍ آسرةٍ بالقلق.

"عليَّ أن أذهب، شيءٌ طارئٌ قد حدث. سأعود إليكِ بأسرع ما يمكن"

بعد مسارعته لملاقاة شهاب، يجد عربيٌّ نفسه في قلب الدوامة التي تحيط بأخيه. يستند شهاب على كتف عربيٍّ وهو يهمس بخبر خيبةٍ وخيانةٍ، الأخبار تزلزل أركان عربيٍّ ويبقى صامتاً لبرهة وهو يحاول استيعاب الواقع.

يفاجأ عربيٌّ بأخبار خيانة غرام، التي كان يجد لها مكاناً في قلبه وفي دائرة عائلته فيقول:

"ماذا؟! خيانة غرام؟ لا... لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. هناك سوء فهم، غرام التي أعرفها لا يمكنها فعل شيء كهذا. هذه الأخبار تزلزل كل الثقة التي كانت موجودة... كيف... كيف حدث هذا؟"

تتحرك مشاعر عربيٍّ في دوامة من الإنكار والارتباك، وقد يحاجج ذاته كمحاولة لاستيعاب الصدمة. بعدها يأخذ عربيٌّ لحظةً ليستجمع أفكاره، ويتابع بحزم:

"سنواجه هذا معاً شهاب. لكن يجب ألا نتسرع في الحكم. سأساعدك في كل خطوة لنتأكد مما إذا كانت هذه الادعاءات حقيقيةً وما يمكننا فعله لإصلاح ما أُفسد. مهمتنا الأولى هي التحدث مع غرام بكل صراحةٍ ومحاولة فهم الأمور بوضوح."

بعد الاستماع إلى كلمات عربيٍّ، يبدو شهاب مثقلاً بوطأة الألم والخيبة، لكنه يستمد قوةً ما من دعم أخيه. يغمض عينيه للحظةٍ ويأخذ نفساً عميقاً يشبه الزفير تلو مشقة، ثم يفتحهما من جديد بنظراتٍ تحمل كل مشاعر القرار والعزم. ويقول بثباتٍ متزعزعٍ:

"أدرك أن هذا ما يجب فعله، لكن هناك جزءٌ مني يخشى المواجهة، يخشى أن تتحول الشكوك إلى حقائق لا يمكن إنكارها. أشعر بأن كل خطوة أخطوها نحو تلك المواجهة تقودني إلى واقعٍ جديدٍ لا أعرف كيف سأتقبله."

يظهر في صوته تردٌ يكسره الإصرار بين الحين والآخر:

"لكنك محق، يجب ألا نتهرب من الحقيقة مهما بدت مؤلمة. فأمام حقائق الواقع لا فائدة من تجاهل ما يجري. فلنجد الأجوبة معاً، فبدون اليقين، لا يمكننا الشفاء ولا التقدم خطوةً نحو الأمام."

يعكس رد شهاب مزيجاً من الشجاعة والهشاشة. وبالرغم من الصراع الداخلي الذي يعتصره، يظل ملتزماً بفكرة أن المواجهة هي جزءٌ لا مفر منه في مسار التوصل إلى السلام مع النفس ومع الوضع القائم.

ثمة تشابكٌ وتداخلٌ بين اليقين والشك يغلف أفكار شهاب، فمهما بدت قوة الدليل، فإن وقع المواجهة يبقى أمراً لا يستهان به. وقد تتعثر الكلمات على شفتيه قبل أن ينطق بها صوتٌ يأبى الاستسلام لنتائج متسرعةٍ:

"صحيح أنني قلت لعائلة غرام أن لدي دليلاً، وأنا فعلاً أملك أدلةً تشير إلى الخيانة. لكني أريد أن أكون منصفاً قدر الإمكان. أخشى أن تكون مشاعري قد أعمتني عن رؤية الصورة كاملةً. لا زالت هناك جوانب قد لا أكون قد فهمتها بشكلٍ صحيح. ولا بد من مواجهة غرام بما أعتقد أنه حقيقي، والاستماع إلى ما لديها من تفسيراتٍ. ربما هناك تفاصيلٌ غائبةٌ أو زاويةٌ لم أنتبه لها، غير ذلك أنا لم أعلم من هو الشخص الذي تخونني معه، ولكن لا بد أن أعرفه."

يوافقه عربي الرأي ليقول:

"العدل يقتضي أن نتأكد من كل شيء قبل الحكم. وإن كانت الأدلة التي بيدك تثبت ما تظن، فإن المواجهة ستعطي غرام الفرصة لتقول ما لديها. فقط بهذه الطريقة يمكننا أن نتعامل مع الموقف بأخلاق ونجد سبيلاً للخروج من هذه الأزمة بشرف."

وتظهر في ملامح شهاب علامات واقعية تعبر عن إدراكه أن المواجهة لا تعني فقط التحقيق في الخيانة، بل في جوهر علاقته بـ غرام وما سيحمله المستقبل لكلٍ منهما.

الفصل الثاني

يرسم التوترُ خطوطاً على محيا الليل، وتبدو الساعاتُ المتوالية تحتضن أنفاس القادم من الأحداث.

جو مشحون بالإحساس، حيث يجمع غرام وعائلتها وشقيقها أنس في غرفة المعيشة الأليفة التي كانت شاهدة على لحظات الوصل والفرح في الماضي، ولكنها الليلة تكتسي بالجدية والصمت المهيب.

تحيطُ بهم جدرانُ الذكريات ويقطعُ الصمت صفيرُ الريح خارج النافذة، كما لو أن الطبيعة نفسها تترقب القادم من الكلمات. يَبدأ ابراهيم بكلامٍ يحملُ وقار السنين وخبرة الحياة، قائلاً بصوتٍ مُتزنٍ وعينين تبحثان عن الصدق:

"غرام، يا نور هذا البيت، مهما يكن الذي جرى، أنتِ تظلين جزءاً من قلب هذه العائلة. لكن الحقيقة يجب أن تُقال ومن ثم نبني على الشيء مقتضاه."

ترتجفُ يدا غرام وعلى شفتيها تتلعثمُ الكلمات، ترفعُ النظر لأنس الذي كان يوماً مصدر دعمٍ لا ينتهي.

أنس يجلس بجسارة، لكن في عينيه يُمكن رؤية خيبة الأمل التي تكادُ تكتم على أنفاسه. بجانبه يجلس وليدُ العمر ابنه غيث، رمزُ البدايات النقية وسط الفوضى التي خُلقت.

ياسمين، هي الصخرة الدافئة بجانب أنس، تُمسك يده في إشارةِ دعمٍ صامتٍ، بينما تحاول نور شقيقة ياسمين – التي كانت دوماً رفيقة غرام في السراء والضراء – أن تُلملم بخيوط عينيها الدموع التي تُنذر بالانهمار. وستقفُ نور كحلقة وصلٍ بين غرام وبقية العائلة، تحمل أثقال التعاطف والواجب.

"كيف؟" سؤال يُطلقه أنس في الفضاء، تردّد صداه بقوة، "كيف لكِ أن تفعلي هذا بنا وبزوجك؟"

غرام، واقفة على أرضٍ متزعزعة، تلتقط أنفاسها بصعوبة، لم تبدُ على شفتيها كلمات العذر، فالحقيقة المرّة تثقُلُ لسانها.

ياسمين تنظر إلى غرام بأسى واضح، تُؤمن بأن الخطأ لا يُمكن أن يُمحى، لكنّ الندم يُمكن أن يكون بداية الطريق للتصحيح. صوت بكاء غيث يملأ المكان بلحظة إقرارٍ بالحياة وتعقيداتها.

يصبح الجو مشحوناً بتعقيدات الفعل وردّ الفعل، وأنس غير قادر على الفصل بين حبّه لشقيقته وبين الخيبة التي يشعر بها. سيكون توجّهه صارماً، والكلمات التي تُلقى قاسية، ليردف أنس بنبرة ممزوجة بالغضب والحزن:

"العائلة اسمٌ نحافظ عليه، والشرف ليس مجرد كلمة. أسعدناكِ، آمنّا بكِ، وهكذا تكافئين الثقة؟"

لا يسمع منها رد فيردف بحزم:

"لن أُسقط حكمي الآن، إلى أن أرى بعيني وأفهم كل جانب من القصة. لا يمكن للأخ الذي يحمل الحب والقلق أن يُساق بالشكوك وحدها."

أنس يلتفت بثبات، محاولاً جاهداً أن يُبقي وجهه صلباً كجدارٍ قديم. يأخذ نَفَساً عميقاً، يحمل بين يديه طفله غيث و يُمسك بيد ياسمين ويتقدم نحو الباب. سكون يعمّ المكان، تُعلق الأنظار في أذيال معطفه وهو يعبر العتبة، يغلق الباب خلفه برفق، وتَسقط الضجة وراءه مثل ستار يُنزل بصمت على مشهد مُتوتر.

يجلس ذلك الشاب في زاوية هادئة من منزله، يمسك الهاتف بيد ترتجف بخفة، وهو يستمع إلى صوت والدته الضعيف الآتي من خلال الجهاز. تحكي له عن أيامها وكيف تقضي الوقت بمفردها في المدينة البعيدة، وهو يرد بكلمات الحب والاطمئنان على صحتها.

"كيف تشعرين اليوم يا أمي؟ هل أنت بحاجة إلى شيء؟" يسأل (رضا) بلطف، يحاول طمأنة نبرة صوته حتى لا تقلق والدته.

"لا تقلق علي، يا بني، أنا بخير كلما سمعت صوتك." ترد الأم بصوت يمزج بين الحنان والتعب.

بعد لحظات من الوعود بالزيارة والدعم، يترك رضا الهاتف جانباً مع الوعد بالاتصال بها مرة أخرى قريباً. يظهر على وجهه القلق والارتباك وهو يفكر بغرام. يتنهد عميقاً ويحاول الاتصال بها مجدداً، فيجد هاتفها ما يزال مغلقاً. يضغط على الهاتف بتوتر ويتساءل عما إذا كانت مكالمتهم السابقة قد قُطعت لحمايتهما أو لسبب قد ينذر بمشكلة أكبر.

تبدو على ملامح رضا أثر المعضلة الأخلاقية والعاطفية التي يتخبط فيها، حيث يعلم في داخله أن ما يفعله ليس محقاً، لكنه مشدود بالعلاقة.

(رضا) شاب ينبض بحيوية الشباب، في بداية عقده الثالث، شامخ الطول بقامة تمنحه وقاراً لا يخطئه البصر. يكسو بشرته لون قمحي يشع بدفء الشمس الشرقية، وتزين عينيه البنيتين بريق يخفي وراءه حكايات متعددة. جسد رضا متوازن، بلياقة تحاكي الاعتناء ولكنها لا تصرخ بالرياضية. يترك شعره البني يتساقط بعفوية قليلة فوق جبينه، دون أن يتكلف في تسريحه.

يتمثل بعبقرية فطرية ودهاء خفي، يحتل مكاناً رفيعاً في شركة والده. وإن كان يبدو ساحراً في التعامل مع المهام الموكلة إليه، إلا أن قلبه لا ينبض بالحماسة لتنامي الإمبراطورية؛ بل ربما يخفق لأسباب أكثر عمقاً وتعقيداً. ينفذ ما يطُلب منه بكفاءة وابتسامة متقنة، ولكن عيناه التي غالباً ما تتجنب التواصل المباشر تخبئ ألف خطة وخطة.

في الخفاء، يُعد رضا خيوط مستقبله البديل، حيث الحرية تتطلب التضحية بالإرث العائلي. ليس بالضرورة لأنه يكن للشركة كرهاً، إنما لأنه يريد أن يصوغ قدره بيديه، حتى وإن كان سبيل ذلك مرسوماً بأحرف المخاطرة والخراب.

كان أنس وياسمين يتواجدان في زاوية الغرفة المعتادة، لكن هذا المساء، لا يبدو كباقي المساءات؛ فالصمت ثقيل، كمن يحمل على كتفيه سماءً ملبدة بالغيوم.

الغرفة تتنفس التوتر، بينهما تقف ذكرى فعلة غرام، لا كالشبح بل كالظل الذي لا يغيب عن الجسد، ما جعل الجو بينهما مشحوناً.

كلاهما يمتلك عقولاً متعطشة للمعرفة، فقد كان أنس يدرس الهندسة الهيكلية مما ينعكس عليه بنظرة تحليلية لكل ما يجري من حوله، هو الشاب الذي يعكس صورة الثقة والجاذبية. في الثلاثين من عمره، هناك شيء في قامته الفارهة وعرض كتفيه يوحي بأنه يملك الأمر والنهي في كيانه. شعره الفحمي القصير، يُنسق بعناية فائقة، مما يزيد من حضوره القوي. بشرة أنس البرونزية كأنها تتناغم مع عينيه الغامقتين ليعطي نظرة ثاقبة وفطنة تحتار فيها ياسمين.

ياسمين، في الثامنة والعشرين من عمرها، تلك الأديبة النابضة بروح الحرف والقلم. هي الفتاة التي تتألق في ثوب المشاعر الندية والرقة الأصيلة، تحمل بين جنباتها ذلك الكون المترامي من الأحلام والخيال. بملامحها الشرقية الأصيلة، تروي حكايات الجمال الأزلية؛ عيناها العسليتان كبوابة نحو عالم من السحر الخافت والدفء الذي يلف القلب. خصلات شعرها السوداء، التي يبدو كأنها الحرير الأسود الرقيق، تنسدل بجاذبية، تُطيل نظرات الإعجاب وتدع الإطراء ينساب كالنهر.

دراستها تعكس مقدار ما تحمله من تعمق ورصانة في عالم الأدب. بدأت في أروقة الجامعات العريقة، حيث تفتحت أفكارها على نوافذ التاريخ الأدبي والنقدي.

ولها بحثٌ دائم ومثابرة لا تنضب في إسهامات الأدب، حصلت على درجات علمية تترجم مكانتها العلمية وإنجازاتها، ومع قلمها تمسك بمصباح ينير طريق المعرفة والبيان.

تعارفهما جاء في إحدى المساءات العائلية، حيث كان الجميع مجتمعين في دفء منزل يبعث على الطمأنينة. كانا يقفان في الركن المنعزل القريب من النافذة، والتي تطل على الحديقة الهادئة المضاءة بالقمر، ليبدأ بينهما الحديث خفيفاً كنسيم الليل، والذي منذ تلك اللحظة لم ينتهي، بل تكلل بالزواج وبثمرة حبهما غيث.

في هذه اللحظة، يواجه المهندس والأديبة تحدياً ليس في مقدور الكتاب والمساطر حله.

كانت ياسمين تحاول إسكات بكاء الطفل دون جدوى، بينما يزداد صبر أنس نفاذاً، يتنهد بقلة صبر ليقول من بين أسنانه:

"أسكتي الطفل"

تحاول إسكاته وهي تحتضنه وتمشي به بخطوات موزونة، تهمس له بعذوبة صوتها الأمومي ولكن دون جدوى. لينتفض أنس ويصرخ محاولاً إخماد غضبه الكامن:

"يكفي بكاء! لماذا لا يهدأ للحظة واحدة؟!"

ياسمين، بتعبير ممزوج بالأسى والتعب، ترد:

"أنا أحاول، لكن ليس بيدي حيلة، إنه مجرد طفل!"

تغادر الغرفة مبتعدة بطفلها الذي يخفت بكائه، ومع إغلاقها للباب برفق يعود الصفاء إلى الفضاء، يتنهد أنس بارتياح يفسر ربما بأنه هدوء بعد العاصفة.

الفصل الثالث

غرفة نصف معتمة مع خيوط الضوء الذي يتسرب من بين الستائر المغلقة. شهاب جالس على الأريكة، عيناه تائهتان في الفراغ، تعصف به عواطف متضاربة. يشعر بحرارة الغضب تسري في عروقه، تتفاعل مع البرودة الجليدية للخيانة التي جمّدت قلبه. كل جزء منه يرغب في الصراخ، ولكن ثقل الحزن كظلمة الليل يكمّم صوته.

تتراءى له ذكرياته مع غرام، لحظات الود والقرب، الوعود والأحلام المشتركة، كلها تبدو الآن وكأنها خيالات بعيدة المنال. يتساءل كيف لهذا الصدق والصفاء أن يتلاشى ويتحول إلى سراب.

يجاهد شهاب لاستعادة وضوح أفكاره، لكن الاضطراب يمنعه من التفكير المنطقي. يكافح لإعادة ترتيب قطع الحقيقة المتناثرة، ويبحث عن طريق للتسامح أو الانتقام.

معزول في صمته، يسمح لشذرات من الدموع الخانقة بتسللها من بين جفونه الثقيلة، دموع تحرق كلما انحدرت على وجنتيه، علامات حقيقية لقلب محطم لا يعرف كيف يشفى.

شهاب في الواحد والثلاثين من عمره، شخصية تتميز بحيوية لا تخلو من بعض التعقيد. يمكن ملاحظة تسرعه في مشيته السريعة والمتحمسة التي تبدو كأنه دائماً على وشك الوصول إلى مكان مهم. نظراته الحادة وتعابير وجهه الديناميكية تنم عن ذهن مشغول وفكر يجري خلف الكواليس لحل مسألة معقدة أو تركيب فكرة جديدة.

ملامحه مرسومة بخطوط واضحة وقوية؛ جبينه العريض محاط بشعر أسود متموج يقع بشكل طبيعي دون أن يفقد طابعه الأنيق. عيناه السوداوان. ومع الحاجز الذي يثيره ظاهرياً من الإلحاح والتسرع، فإن فمه المحاط بلحية متوسطة الطول يكشف عن ابتسامة بسرعة حين يجد فكرة مشوقة أو حين يشعر بالارتياح في محيطه.

درس التجارة والاقتصاد، تجتاحه حماسة كبيرة لفهم عمليات سوق الأسهم العالمية.

ينفتح باب بيت شهاب ببطء ليدخل عربي ببرود معهود، يقف في الردهة للحظة متأملاً قبل أن يغلق باب الدار خلفه. شهاب الذي يبدو على وجهه أثر الليالي البيضاء، يرفع نظره إليه ويحييه بإيماءة خافتة.

يتشاركان الصمت لبرهة في حين عربي يتنحنح قليلاً قبل أن يفتتح الحوار.

"أعلم أن هذه الأوقات عصيبة يا شهاب، ولا أريد أن أبدو كمن ينكر الوضوح، لكن ماذا لو كان لغرام تفسير لما يحدث؟"

تسود الغرفة ثانية من الصمت قبل أن يجيب شهاب بصوتٍ به تحشرج واضح:

"ليس هناك ما يفسر هذه الرسائل، وما من تفسير سيبرر هذا الرقم المتكرر في سجل المكالمات، يبدو أني سأتخلى عن فكرة التحدث معها، فالحقيقة واضحة"

عربي يراقب وجه أخيه لبرهة ثم يقول بهدوء:

"هل يمكنك أن تريني الرقم؟ قد يساعدني ذلك في فهم الأمور بشكل أوضح."

يأخذ منه الهاتف وينقل الأرقام بعناية، يحدق في شاشة هاتفه وينعكس على بؤبؤ عينيه اسم "رضا"، الصداع يدق أجراسه بقوة في رأسه. تتسارع دقات قلبه وهو يفكّر في المرات التي تقاسم فيها ورضا الضحكات، الأسرار.

شهاب ينظر إليه مترقباً بنبرة أمل واضطراب:

"من هو صاحب الرقم، عربي؟"

عربي يشعر بثقل السؤال يهوي على صدره. يرسم على محياه ابتسامة باهتة، ويسارع بالرد بصوت مضطرب:

"لا، لا... لم أجد هذا الرقم من قبل"

شهاب يهز رأسه ويقبل التفسير، على الرغم من الظلال التي تلوح في الأفق، ويقرر التحقق من الأمر بنفسه في وقت لاحق.

عربي يضع الهاتف جانباً وتدور في ذهنه الخطة التالية، يعتزم البحث والنبش في الأمر دون إثارة الشكوك. يدرك أن الوقت قد حان ليعرف معدن صديقه رضا، وما طبيعة علاقته الحقيقية بغرام. ولكن قبل مواجهته سيواجه غرام أولاً.

تخيم الأسرار على الأجواء، ولكلَ من عربي ورضا قصةٌ يخفيانها، ولكن ما لا يُدركانه هو أن الزمن لا يرحم عندما يتعلق الأمر بكشف الحقائق التي يُحاول كلٌ منهما جاهداً إخفاءها.

نعم، عربي وقع في حب غرام قبل زواجها من أخيه شهاب ولكن مع مرور الوقت، وجد عربي أن مشاعره نحو غرام قد تغيرت وأنه قادر على المضي قدماً دون الحاجة لإحداث قلاقل عائلية.

خاصة بعد أن شهاب قد رأى في غرام شريكة الحياة المثالية واستطاع أن يبني معها علاقة على أسس متينة.

في مطعم فاخر، حيث تنساب أنغام هادئة وتتهادى إنارة خافتة بين طاولات مرتبة بعناية فائقة، يمكن للعين أن ترصد عربي جالساً في زاوية منعزلة تطل على النافذة التي تضفي على وجهه بعض ألق الأضواء الخارجية الساهمة.

عربي يفحص ساعته بقلق مستتر، يحس بوقع الثواني الممتد كأنها دهور، الانتظار يزيد من حدة التوتر المتجمع بداخله. من خلال نسيج الستارة الشفاف، يمكنه رؤية عمر اليوم ينفد مع غروب الشمس، ومعه الحزم في قراره يتصاعد.

النادل يقترب قائلاً بأدب:

"هل تحب أن تطلب شيئاً أثناء الانتظار، سيدي؟"

عربي يشعر بالامتنان للمقاطعة، يبتسم بأدب:

"كوب من الماء فقط، شكراً."

يعود النادل ويضع كوب الماء، وعربي يغتنم فرصة وجوده ليطمئن نفسه بأخذ رشفات صغيرة، في محاولة لتهدئة جفاف حلقه والأفكار التي تتراكم.

عربي، في الثانية والثلاثون من عمره، يتمتع عربي بمظهر ملفت، من ناحية القامة، هو طويل وذو بنية قوية، لكنها متناسقة بطريقة جعلت من مظهره يوحي بالقوة والحزم. وجهه بملامح حادة، شاربه المحدد ولحيته الخفيفة تُضفي عليه مزيداً من الوقار والجاذبية. أنفه المستقيم وفمه الذي يقفل بثقة، يعطيانه طابعاً من الجدية.

درس في مجال إدارة الأعمال، ويظهر هذا جلياً في طريقته المنهجية في التفكير، بالإضافة إلى حضوره القوي وصوته الحاسم الذي يطغى على أي حوار يشارك فيه.

جانب آخر يزيد من هيبة عربي هو لحظات نظراته، التي تتراوح بين الحدة عند النقاشات الجادة ولمحة دافئة عندما يخف حماسه. عيناه البنيتان الداكنتان تستطيعان أن تعكسا العديد من المشاعر بتغير القليل من تعابيرها. لديه القدرة على أن يبدو غامضاً في لحظة، وفي الأخرى يكون كتاباً مفتوحاً.

أما طريقة لبسه فهي تتسم بالأناقة المدروسة؛ يفضل الألوان الكلاسيكية التي تعزز من هيبته، مثل الرمادي والأزرق الداكن والأسود.

تدخل غرام المطعم وتلمح عربي الجالس، جلالتها متميزة وملابسها الراقية تسحب الأنظار، لم يتزحزح نظر عربي عنها، فنبضه المقلق وجبينه يفضحان شدة ما يختزله من مشاعر.

غرام، في السابعة والعشرين من عمرها، بشعرها البني الذي يتدلى بأناقة حول كتفيها وجبينها المستقيم الذي يرسم إطاراً لملامحها المتوازنة، تمتاز بعينين لونهما بني تشعان بالثقة. تعكس ثنايا وجهها قصصاً عن إصرارٍ وعزم لا يلين. درست القانون، وهذا ينعكس في قدرتها على الجدل والطرح بثبات، وتقديم الحجج بقوة وذكاء. شخصية غرام القوية ليست حادة أو منفرة، بل مليئة بالإلهام والحزم، وهي ممن يصنعون المواقف بدلاً من انتظار حدوثها.

غرام تقترب بثقة مطلقة، وتلاحظ نظرة عربي:

"مرحباً عربي، أرجو أني لم أتأخر كثيراً."

عربي يقوم بالتحية ويدعوها للجلوس:

"لا، لقد وصلتي في الوقت المناسب."

تجلس وتجري بينهما أحاديث غير مباشرة، يعرف كلاهما أن وراء كلماتهما الرزينة يختبئ عاصفة من الكلمات التي ستنكشف قريباً. عربي يستعد لينسج خيوط حديثه الأخير مع غرام، تلك المواجهة التي رتب لها وأدرك أن نتائجها قد تغير مجرى حياتهم جميعاً.

كانت تلك المواجهة في المطعم بين عربي وغرام، حيث التقى الحسم مع القوة: عربي مع سطوته الفكرية وظهوره الجلي كرجل أعمال مقتدر، وغرام مع حضورها القانوني البارز وشخصيتها المؤثرة. كانت مشادة لفظية مفعمة بالشغف والحجج، حيث لا يمكن لأي منهما التنازل أو الاستسلام.

عربي بنبرة واثقة وخفيفة السخرية:

"أخبريني غرام، كيف حال علاقاتك الاجتماعية هذه الأيام؟ أنا متأكد أن لديك الكثير لتشاركيه."

غرام برزانة وهي تضم يديها على الطاولة:

"الأمور جيدة، كما تعلم الانشغال بالعمل يأخذ معظم وقتي."

عربي يميل إلى الأمام قليلاً، يلمع في عينيه شيء من مكر خفي:

"أوه، العمل. نعم، يجب أن يكون ذلك شاقاً. يا ترى، هل يكفي العمل وقتاً لـ اللقاءات الخاصة؟"

وميض من الذكاء يلمع في عينيها، لكن صوتها ما زال هادئاً:

"عربي، أنت تعرف أني ملتزمة بشقيقك، ليس لدي وقت لمثل هذه اللقاءات. ولا أعرف ماحدث لعقله باتهاماته الباطلة لي."

في هذه اللحظة، يقرر عربي أن يجهز ضربته القاسمة، يريد أن يرى كيف سترد عندما تواجه بالحقائق المزعجة.

عربي صوته حاسم، وعيناه تطالعانها بجدية:

"إذن، كيف ستفسرين وجودك المتكرر مع رضا؟"

تظل غرام صامدة كصخرة في وجه الأمواج، وتبتسم ابتسامة محكمة، وكأنها مُعِدَّة لهذه اللحظة.

غرام دون انفعال:

"إنه مجرد صديق، ما الغريب في ذلك؟"

تتأرجح عواطف عربي بين الشك والتصديق، يحس بثُقل الشكوك التي جمعها ومع ذلك، يرى أمامه امرأة متماسكة، تنفي بكل هدوء الاتهامات الموجهة إليها. لوهلة يرغب في تصديقها، لكن ما لبث أن أعاد تركيزه.

يتنفس بعمق مستعيداً برودته:

"ربما، لكن ما تنسينه هو أن شهاب ليس مجرد شقيق لي بل حياته قيمة. ومهمتي أن أحمي حياته... وأضمن عودتك إليه بالشكل الصحيح."

ما يزال عربي يتحسس في الظلام، يحاول إثبات خيانة لم يرها، وغرام لا تتزحزح.

يردف بروية مع فحوى إثبات:

"من المثير للاهتمام أنك تذكرين الصداقة. لكن، ليست الصداقة هي ما رأيته في الرسائل الغرامية بينك وبين رضا، ولا في الاتصالات المتكررة وقت منتصف الليل."

تلمع الشكوك في عيني غرام للحظة، إنها اللمحة الوحيدة التي تكشف عن شيء من ارتباكها، لكنها سرعان ما تستعيد تماسكها.

تجيب وصوتها لم يفقد بهائه:

"عربي، نحن في عصر التكنولوجيا والتزييف سهل. يمكن تفسير الكثير من الأشياء بطرق مختلفة. لقد كان سوء فهم، لا شيء أكثر."

لم يستسلم وحافظ على هدوءه الاستراتيجي:

"ربما يمكن تفسير الرسالة الواحدة بسوء فهم، لكن الأدلة التي أمتلكها تحكي قصة مختلفة. وأنا قررت أني لن أسمح بتجاهل هذه القصة. يجب عليك مواجهة شهاب بالحقيقة. سأكون هناك لدعمك ودعمه."

بعد انتهاء حوارهما المشحون بالتحديات والإصرار، يقف عربي بكل هدوء حاسماً أنه قد أنجز ما جاء ليفعله. يلقي نظرة أخيرة باردة تجاه غرام قبل أن يغادر المكان، وهو يعلم أن الكلمات التي تبادلوها قد غيرت مجرى الأمور بلا رجعة.

غرام، التي ظلت صلبة طوال المحادثة، تظهر عليها علامات التوتر بمجرد أن يخرج عربي من المكان. تتناول هاتفها بيد ترتجف بخفوت، تخفي وجهها ببراعة حتى لا تُكشف مشاعرها، وتطبع رقم رضا بسرعة. يدق قلبها في صدرها وهي تنتظر أن يجيب.

غرام بصوت منخفض وحازم:

"رضا، استمع، عربي يعرف كل شيء. يجب عليك الاختفاء. اذهب لزيارة والدتك، أخبرهم أنها مريضة. الآن ليس وقت المجادلة. سأعتني بكل شيء هنا."

تضع الهاتف جانباً، بينما تبدأ عجلة من التفكير في كيفية إدارة الأزمة التي تلوح في الأفق. كل شيء يعتمد الآن على مهارتها في اللعب على أوتار الموقف، والمحافظة على حجاب السرية حول علاقتها برضا.

في مكان آخر، رضا في حالة عجلة من أمره. الغرفة مبعثرة بالملابس والأشياء التي يحاول جاهداً تنظيمها داخل حقيبته. تبدو على ملامحه معالم القلق والاضطراب، وهو يجذب السحاب ليغلق الحقيبة بتلك النظرات التي تخفي قصصاً لم ترَ بعد.

يخطو بسرعة نحو الباب، يأخذ نفساً عميقاً وكأنه يتخذ قراراً لا رجعة فيه. يترك خلفه شقته التي شهدت لحظات وأسرار كثيرة، يقفل الباب بحزم ويتوجه نحو سيارته. يدير محرك السيارة بينما قلبه يدق بعنف، وينطلق مبتعداً في ليل مكتظ بالأنفاس المكتومة.

في تلك الأثناء، يصل عربي إلى المبنى نفسه. يتقدم بثقة ويطرق الباب بقوة، دقات أصابعه تصدح في الرواق الفارغ. ينتظر لحظة ويطرق مرة أخرى، والصمت الذي يلي كل طرقة يزيد من إصراره.

مع عدم وجود رد، ينزل عربي إلى الطابق الأرضي حيث يعمل البواب، وهو يحمل وجه السؤال بصوت واثق يخفي خلفه حيرة:

"ألم ترى رضا اليوم؟ هل هناك معلومات يمكن أن تفيدني بها؟"

البواب ببساطة وهو يتابع عمله:

"رضا بيك؟ آه، رأيته وهو يخرج مسرعاً، حمّل حقيبة كبيرة في سيارته وانطلق. قال لي إنه سيغيب لبعض الوقت."

يترك عربي بعد حديثه مع البواب محاولاً احتساب خطوة رضا التالية. يعود عقله إلى الكلمات التي تبادلها مع غرام، ويدرك أن الفرار هو الرد الذي اختارته للمواجهة.

الفصل الرابع

الشمس تتسلل خجولة من بين ثنايا الستائرفي دبي، وترتسم أشعتها على جدران المنزل الدافئ، حيث الضحكات تتعالى بعفوية من زوايا الغرفة.

يجلس كنان على الأريكة، يتابع بعينين تلمعان ابنته الصغيرة وهي تحاول بناء برج من مكعبات الألوان. تتلعثم أصابعها الصغيرة بين المكعبات، تقع بعضها أرضاً، وتعاود الصغيرة الكرة بإصرار وضحكات.

سيرين من ناحية أخرى، تجلس بجواره، تحمل فنجان قهوتها بيد وتتحسس هاتفها بالأخرى. يخفي وجهها الرقيق قلقاً غير مرئي يشغل بالها بعد الأخبار التي وصلتها عن شقيقها شهاب. في محاولة لإبعاد تلك الأفكار، توجه إليه نظرات ملؤها الحنان وتبتسم.

كنان مع تصنعه لصوت عالي المرح بهدف إضحاك ابنتهما:

"أتعلمين يا صغيرتي، أن برجك هذا يبدو وكأنه ناطحة سحاب مصغرة؟"

تضحك الطفلة (ريم) بفرح طفولي، ويستمر الاثنان بالإبتسام واللعب مع الطفلة، ولكن لحظات الصمت تملأ الغرفة بين الحين والآخر، حيث تتسرب أفكار سيرين للواقع القاسي الذي تتجنب مشاركته مع كنان للوقت الحاضر، آملة في عدم تعكير صفو الأجواء الأسرية بأخبار قد تجلب الحزن.

كنان بحماس:

"ما رأيكِ أن نخطط لمفاجأة لشهاب وعربي وأنس وغرام في زيارتنا القادمة؟ تعرفين كم يحبون المفاجآت."

سيرين مدارية قلقها:

"أجل، سيكون شيئاً جميلاً."

تلك الضحكات التي تُدفئ قلب سيرين، تمنحها القوة لتحمل الأخبار والأحداث، مهما كانت صعوبتها، متشبثة بحبها الكبير لكنان وابنتهما. وتظل القصص التي جمعتهما سراً يزيدهما ترابطاً وحباً، فكل نظرة من سيرين لكنان تروي جزءاً من هذه القصة، قصة حب لا تُنسى بين حكايات العائلة.

كنان، في الرابع والثلاثين من عمره، الأخ الأكبر لـ أنس وغرام، بقامته الطويلة ونظراته الحادة، يحمل بين جنباته شخصية قوية وعصبية، يشعر تحت وطأتها الكل بالاحترام وأحياناً بالتردد قبل الحديث. ومع ذلك، فهو يعتمد على تحليله الدقيق في العمل، مما يجعله قادراً على اتخاذ القرارات المهمة بفعالية. هندسة عمله تنعكس في طريقته المنظمة والدقيقة في الحياة.

سيرين، في التاسعة والعشرين من عمرها، الأخت الصغرى لـ عربي وشهاب، بشعرها الأسود الطويل وعينيها الواسعتين التي تعكس صفاء سماء الليل، تمتلك قلباً يتسع للجميع وصبراً يُحطم الجدران. تعمل كأخصائية نفسية، ما يشهد على قدرتها العظيمة على الاستماع وفهم الأعماق الإنسانية. طبيعتها الهادئة وقدرتها على استيعاب وتفهم طبيعة كنان العصبية، تجعل منها شريكة حياة تكمله وتحتوي تقلبات مزاجه برحابة صدر.

تجلسان نور وغرام وجهاً لوجه في غرفة مليئة بالأشياء التي تحكي عن ماضي معقد. غرام تمسك بفنجان قهوتها، وهي ترتشف منه بتؤدة وتراقب نور بعينيها التي لم يفتر فيهما سوى الصقيع. نور تعبث بأطراف فستانها، وعلى وجهها علامات الاضطراب.

نور بنبرة هادئة:

"غرام، أعرف أن هناك شيئاً ما... شيء تخفينه. السؤال المشتعل بين الجميع، هل أنتِ؟..."

تُقاطعها غرام بنظرة ثاقبة مجيبة:

"لا تبقي هواجسك حول الحقيقة، نور. إن كنتِ تملكين الشجاعة، اكشفي ما تخفيه الألسنة. هل تظنين أنني خائنة؟ هل هذا ما تحاولين استخلاصه بأسئلتك؟"

نور بتردد يشوبه صلابة:

"أنا أسألك لكي أعلم منك الحقيقة."

غرام بابتسامة ساخرة:

"حقيقة؟ الحقيقة أن لا أحد في هذه الدنيا خالٍ من الخطايا. وأنا كل ما فيَّ من نار، لا تحرق إلا من يستحق الاحتراق."

تبتلع نور ريقها، وهي تعرف أن غرام لن تتزحزح، وأن الإجابات لا تُنتزع بالضعف.

نور بصوت واثق أكثر:

"إذاً، إن كانت تلك الشائعات كاذبة، قومي بنفيها الآن وأنا سأصدقك."

تتأمل غرام نور للحظة، قبل أن تُطلق ضحكة خفيفة قائلة:

"تصدقين أو لا، هذا خيارك. لن أمد يدي بالنفي كي أطفئ نار شائعات أولئك الملاعين. أما أنتِ، يجب أن تقرري ما تصدقينه."

نور بحذر:

"غرام، هناك أسرار في كل زاوية من هذه الغرفة... وفي عينيك. الحقيقة تضغط على كاهلنا جميعاً، حتى الهواء هنا يبدو ثقيل بالأسئلة. لماذا لا تُفصحين؟"

تنظر غرام إلى نور بشيء يشبه الأسى الهادئ. تميل قليلاً نحوها، كأنها تريد أن تقرأ الخطوط الخفية في وجه صديقتها.

غرام بثقة:

"كل شخص هنا يخفي شيئاً. لماذا أنت مهتمة بهذا القدر؟ هل تريدين التوصل إلى شيء؟"

يبدو على نور الارتباك، صراع الرغبة في معرفة الحقيقة يتصادم مع رهبة الوصول إليها. تحبس أنفاسها للحظة، تبحث عن الكلمات لكن الصمت يفرض نفسه بقوة.

تبتسم غرام ابتسامة خفيفة ترفع معها حاجباً في تحدٍ وتسلية قائلة:

"ليس بالضرورة أن تجيبي، الصمت أحياناً يقول أكثر مما نظن. لكن أعلمي شيئاً، الحقيقة التي تبحثين عنها قد لا تكون الخلاص الذي تتمنيه."

تترك غرام الكلمات معلقة بينهما، وفي الفضاء الذي يفصل بين النية والقول، تدور عجلة من الأفكار والعواطف. تعود نور إلى الصمت، عينيها تعكسان مزيجاً من الشك والفضول، وشيئاً من الخوف.

نور، شقيقة ياسمين وصديقة غرام المقربة، في السابعة والعشرين من عمرها، شخصية تجسد النعومة الممزوجة بالقوة، في مسارها الدراسي اختارت نور عالم هندسة الديكور، حيث تسمح لذوقها الرفيع وشغفها بالفنون أن يسطعا.

تتسم بطول متوسط ينسجم مع هيئتها الرشيقة. لديها وجه مستدير بملامح هادئة، وعيون واسعة بنية تتلألأ تحت حاجبين مرسومين بدقة. شعرها داكن وقصير، عادة ما تبقيه مرتباً بتسريحة بسيطة تعكس ذوقها العملي والأنيق. بشرتها بيضاء ونقية كأنها تعكس رعايتها لها.

في قلب العاصمة الصاخبة، داخل شركة ضخمة، كان يوجد مكتب عربي، كان منهمكاً في صقل التفاصيل الأخيرة لمشروعه الكبير.

تخترق أصابعه لوحة المفاتيح بسرعة فائقة، عيناه لا تفارقان شاشة الكمبيوتر التي تعج بالأرقام والجداول. مكتبه نظيف ومرتب يعكس صورة الرجل المنظم والجاد في عمله.

فجأة، يُفتح الباب بهدوء وتدخل مليكة، تخطو بخفة ويكسو وجهها ظل من العتاب. تقف خلف عربي، الذي مازال يعمل بلا انقطاع، وتضع يدها على كتفه برقة.

عربي يُداري ابتسامة معتذرة:

"مليكة! كم هو جميل أن أراكِ، ولكن ألم نتفق ألا تأتي إلى الشركة؟"

مليكة بهدوء:

"وهل توقعت مني ألا أحضر بعد كل هذا الصمت؟ لأيام لم أسمع فيها صوتك."

عربي يلتفت إليها أخيراً، فتتلاقى أعينهم للحظة، فهو يدرك قلقها وعتابها:

"يا مليكة، والله لم أنساكِ ولكن ماحدث في الآونة الأخيرة يفوق الحدود."

قبل أن تتحدث، يقطع هدير الهاتف صمت الغرفة. ينظر عربي إلى شاشة الهاتف ويتنهد عند رؤية اسم شهاب يظهر.

"آسف، مليكة، هذا شهاب... يجب أن أرد."

يستمع إلى ما يقوله شهاب على الطرف الآخر، وتتغير ملامحه بالقلق. ينهي المكالمة ويلتفت نحو مليكة ويقول بصوت محمل بالأسى:

"من الصعب حتى تخيل أن غرام قد تفعل شيئاً كهذا. لقد اكتشف شهاب خيانتها."

تتسع عينا مليكة بصدمة، يتردد صدى كلماته في ذهنها، وترتجف شفتاها قليلاً باحتجاج خافت:

"غرام؟! لكن... كيف... لم أكن أتوقع أبداً، يبدوان مثاليين معاً."

يمد عربي يده ليهدئها بلمسة خفيفة على ذراعها:

"لقد كان الأمر صدمة لنا جميعاً. الحقيقة قاسية، وشهاب الآن هو بحاجة لي. لا بد أن نتحدث في هذا فور عودتي."

تحتضن مليكة نفسها، تتشبث ببعض الدفء في الغرفة التي بدأت تختنق بالهواء البارد لخبر الغدر.

"طبعاً، اذهب إليه، هذا وقته... ونحن سنجد وقتنا."

يبتسم عربي بامتنان لتفهمها، يأخذ نفساً عميقاً ليحشد شجاعته ويواجه ما ينتظره خارج هذه الجدران، ومعه قلب مليكة الذي ما زال ينبض له ويسانده حتى في أقسى الأوقات.

--

مليكة: في الخامسة والعشرين من عمرها، شابة ذات ملامح واضحة تنم عن شخصيتها الرزينة والعاطفية في الوقت نفسه. شعرها الأسود متوسط الطول وعيناها الواسعتان تبرزان جمالها الطبيعي دون حاجة إلى المبالغة

في الزينة. تتميز بأسلوب أنيق وبسيط في اختيار ملابسها، مما يعكس حسها الفني وارتباطها بمجال الفنون الجميلة. حيث أنها تمارس شغفها بالرسم والنحت، وتعلمت كيفية تقدير الجمال في أدق تفاصيل الحياة.

بينما هي منغمسة في عالم الفن، التقت عربي في أحد المعارض الفنية حيث كان يبحث عن لوحة لمكتبه الجديد. تبادل الاثنان أفكارهما حول الأعمال الفنية المعروضة، وسرعان ما وجدا توافقاً في الذوق والاهتمامات. تطورت علاقتهما بمرور الوقت من خلال المحادثات حول الفن والجمال، ليكتشف كل منهما في الآخر رفيقاً للحياة بما يشتركان فيه من قيم وأحلام.

الفصل الخامس

في منزل شهاب. عربي يجلس مقابل شهاب، والتوتر يكسر الصمت بينهما.

عربي:

"شهاب، أخبرني ماذا حدث بالتحديد؟"

شهاب يتنهد طويلاً ويبدو عليه التعب:

"لا يزال الأمر غير واضح، لكن كل الدلائل تشير إلى أن غرام لم تكن صادقة معي منذ البداية."

عربي بحزم:

"اسمع، أنا أعرف غرام جيداً. هي قد تكون ارتكبت خطأ، لكنها لا تستحق أن تخسر كل شيء. الناس تتعلم من أخطائها."

شهاب بغضب:

"وماذا توصلت إليه أنت يا عربي؟! هل حقاً تعتقد أننا يمكن أن نعود كما كنا بعد هذا الخيانة؟!

عربي بثبات:

"لم أصل إلى شيء ملموس، لكني أؤمن أن هناك تفسيراً. يجب أن نعطي غرام فرصة لتبرئة نفسها."

شهاب مشككاً:

"تبدو واثقاً جداً، ألا يمكن أن تكون أنت الآخر مخطئاً؟ ربما تعرف شيئاً لا تخبرني به!"

يتنهد عربي بيأس ليحدثه بكلمات وجيهة محاولاً تغيير فكرته:

"شهاب، أراك محبطاً وقد تركت العمل والأصدقاء. لماذا تعتكف هكذا وتترك حياتك تنهار؟"

شهاب بنظرة غاضبة قوية، يحكم قبضته:

"لا يمكنني أن أتابع حياتي وكأن شيئاً لم يكن. أحتاج لوضع النقاط على الحروف وفهم ما حدث بالتحديد قبل أن أتمكن من تخطي هذا."

عربي بحزم:

"ولكنك لن تجد حلولاً في الانغلاق على نفسك. الحياة تمضي وأنت..."

شهاب مقاطعاً بصرامة، وعيناه تشتعلان:

"كفى! ليس من السهل الرجوع إلى الحياة اليومية وكل ما بنيته يتهاوى أمامي."

عربي يحاول تدارك الأمر وامتصاص غضب أخيه:

"حسناً كما تشاء، ولكن فلتعطيها فرصة أخرى، دعها تدافع عن نفسها"

شهاب مشككاً:

"لماذا أنت واثق منها إلى هذا الحد"

عربي يأخذ نفساً عميقاً:

"ثقتي في غرام تأتي من معرفتي بطبيعتها. أؤمن بأنها تستحق الاستماع."

شهاب يتنفس بثقل مجيباً:

"لا أدري كيف يمكنني أن أثق بها مجدداً بعد الألم الذي سببته؟"

عربي بصدق:

"لأننا نحن البشر نخطئ ونتعلم. لا أحد معصوم من الخطأ، ولكن السماح بفرصة ثانية هو ما يجعلنا إنسانيين."

شهاب بحيرة:

"ربما... لكن كيف يمكنني مواجهتها؟ كيف أبدأ حتى المحادثة؟"

عربي يقترب من شهاب، ويضع يده بتعاطف على كتفه:

"يجب أن تبدأ بقلب مفتوح. أترك لكما المساحة لتتحدثا بصراحة. وأنا هنا كما كنت دائماً، لدعمك في هذه اللحظة الصعبة."

تظهر بوادر الاقتناع على وجه شهاب مما يجعل قلب عربي يخفق بسعادة وارتياح لعدم تهور أخيه كما يفعل دائماً. غير عالماً أن شهاب أخبث وأخطر من أن يقتنع بهذه السهولة.

ينهض عربي بهدوء متجهاً نحو الحمام قائلاً:

"شهاب، إن كنت تريد بعض الوقت لتفكر، أعطني دقيقة وأعود لنتحدث أكثر."

في غفلة من عربي، يتناول شهاب هاتف عربي المتروك على الطاولة ويبدأ في تسجيل ذلك الرقم الذي قلب حياته رأساً على عقب، يتبعه شعور مؤلم بالخذلان عندما يكتشف أن الرقم يعود لـ رضا صديق عربي القديم وموجود عنده بالفعل، ليس كما ادعى عربي أنه لا يعرفه.

هل يمكن أن يكون عربي قد تواطأ مع رضا؟ وإلى أي مدى؟

كيف يمكن لشقيقي أن يخون ثقتي ويؤوي سراً بهذه الخطورة؟

الشكوك وفقدان الثقة جعل شهاب في حيرة من أمره. يبدو أن الثقة التي كان يعتبرها أساس العلاقة الأخوية قد تزعزعت، والآن يواجه أزمة كبيرة تتمثل في كيفية استيعاب ومعالجة ما حدث.

يخرج عربي من الحمام ليجد شهاب يحدق به فيقول:

"شهاب، ماذا تفعل بهاتفي؟"

شهاب بألم وغضب:

"أخبرني أنت! كيف لم تخبرني أنك تعرف الرجل الآخر الذي كانت غرام معه؟!"

عربي محاولاً السيطرة على الأمور:

"لقد أردت أن أجمع مزيد من المعلومات قبل أن أحكم. لم أكن أرغب في إثارة شكوك.."

شهاب مقاطعاً بصراخ:

"كفى عربي! الحقيقة أمامي واضحة. لا أستطيع أن أصدق أنني خُدعت من الجميع."

عربي، في خضم صراعه الداخلي، يجد في إعادة غرام إلى أخيه تكتيكاً للحيلولة دون السقوط في فخ الضعف الإنساني واستعادة ذكريات حب لم يتوقع لها أن تظهر إلى السطح من جديد. هو يقاوم بشدة أمواج المشاعر المتدفقة التي قد تدفعه باتجاه شيء عارض، خيانةٌ لم يكن الحسبان يتسع لها. فكرة مشاركتها الخيانة تثقل كاهله بالذنب والتردد، فهو يعلم عواقب تلك الأفعال، يوجد خوف من أن شيئاً معيناً قد يؤدي إلى سلسلة من التأثيرات السلبية والتي لا يمكن تصحيحها. إن قراره بالنأي بنفسه وإعادة غرام إلى جانب أخيه ليس إلا محاولة يائسة للمحافظة على الكرامة والحدود، ولكن بين جنباته، يدرك أن الشيء الوحيد الأكثر تعقيداً من انكار الحب هو محاربته.

فيما يلتهب النقاش بين الأخوين، طرقت آلام الماضي على باب الدار مجدداً. فنهض شهاب ليفتح، وإذ به يجد أنس وغرام واقفين أمامه. كانت غرام تبدو ثابتة وباردة، ويبدو أن أنس أحضرها ليدخلان دون أن يتفوه شهاب بحرف.

يخرج صوت أنس بهدوء:

"لقد أتيت بغرام لأكون شاهداً على نهاية المأساة أو بداية للصفحة الجديدة"

صمت يعم في المكان ليردف أنس بتحدي:

"لقد أخبرتنا أن لديك أدلة وإثباتات على خيانة غرام، وها أنا الآن أطالبك بها، أريد أن أعرف الحقيقة"

شهاب يصطدم بنظره مباشرة في عيني أنس قائلاً بغضب هادر:

"الحقيقة تفوق كل تصوراتك. عشيق غرام، الرجل الذي قلب حياتنا، هو رضا! رضا سليمان، الذي كان صديق العائلة"

غرام تغلق عينيها بشدة، وردة فعلها تتجاوز الغضب إلى نقطة لا يمكن فيها الرجوع.

عربي يحاول إمساك نفسه من افتعال الجنون:

"شهاب، ماذا تفعل؟! كان يجب أن نناقش الأمر قبل أن..."

شهاب يقاطعه:

"لا وقت للسريات والأسرار المخفية! يجب أن يعلم الجميع الحقيقة!"

أنس بصدمة وخفوت في الصوت:

"رضا سليمان.. لا يمكن، كان صديقاً لنا جميعاً"

شهاب موجهاً حديثه إلى أنس:

"لأمر كما يبدو، الأشخاص الذين نثق بهم يحملون أحياناً أقنعة متقنة لا نراها إلا عندما تسقط."

الصمت يعم المكان، تتعقد خيوط القصة يوماً بعد يوم، والجميع يراقبون النتائج تتجلى أمامهم. في هذا المكان تعلو همسات الغموض والخديعة وسط سكون محمل بأسرار ثقيلة. إنها غرفة تغلفها واجهات الوفاء، حيث الحقيقة مستترة خلف أقنعة الظاهر. تفوح في الجو روائح الخيانة والنوايا المبطنة، بينما الثقة بين سكانها هشة كخيوط العنكبوت.

منزل أهل غرام، في غرفتها القديمة.

يقترب أنس من غرام بخطوات بطيئة، الشرارات تتطاير من عينيه، قبل أن يرفع يده بقوة ويوجه صفعة مدوية على وجهها. يتردد صدى الصفعة في الغرفة، ويبدو كأن الزمن توقف للحظة.

غرام تلمس وجنتها بصدمة، ثم تستجمع قوتها وتنظر إليه بتحدي:

"لماذا لا تفهم، شهاب لم يكن مثالياً، أنس! أنا لست الوحيدة التي..."

أمسك معصميها بحركة سريعة مقاطعاً لها:

"هل يعني خذلانك أن تتبعي نفس المسار؟" همس بصوت مخنوق بمشاعره المتضاربة. ثم استطرد قائلاً:

"وأين البرهان على أقوالك، عن تلك الخيانة التي تنسبينها لشهاب؟ دائماً ما كنت تنشرين أخبار مثالية عما كان بينكما، وكيف كانت حياتكما تبدو وكأنها من أروع القصص."

غرام بعينان دامعة و حدة:

"دائماً ما كنت واقفة في وجه الأيام بمفردي، أحمل على كتفي أثقال الدنيا دون أن أرغب بأن أكون عبء عليكم. لم أشأ أن تتخبطوا في دوامة مشاكلي ومعاناتي التي رسمها قدري معه."

أنس بصوت يعلوه الغضب والصراخ:

"هل تبررين لنفسك أفعالك؟ هل تدركين ثقل كلماتك؟ أترين كل امرأة تواجه خذلاناً أنها ملزمة بالرد بمثله؟"

يخيم الصمت على غرام للحظات بعد صحوة كلمات أخيها الحادة، وفي هذا الهدوء تقتحم ياسمين المكان، يتبعها والدا غرام وأنس، تحت دهشة اللحظة.

"ما الذي يحدث هنا؟ ما هذا الصراخ؟"

سأل ابراهيم بنبرة قلقة، فيما تراقب الأم (وفاء) بقلق.

انهمرت كلمات أنس دون تحفظ، كقصف الرعد يشق صمت الليل:

"الصراخ... هذا الصراخ بسبب حقيقة لا تُطاق... خيانة غرام!"

غرام تلتفت نحوهم ببطء، ذراعاها متدليتان بصمت، وشفتاها تنفتحان كأنها على وشك البوح، لكن الكلمات تتوه في درب الصدى.

فتقاطع ياسمين بصوت مرتعش:

"أنس، تمهل. هل حقاً ما تقول؟"

أنس بغضب:

"أجل حقاً، شهاب طلقها!"

تحتل الصدمة وجه وفاء وهي تعض على شفتيها، الدموع تتأرجح على حافة عينيها. ابراهيم يتسمر في مكانه، العجز يسرق منه ردة الفعل.

أنس الغضب يأكل أطراف كلامه:

"أنا مقهور من الخيانة التي جلبت العار علينا، من الإهانة التي تجرعناها من شهاب. لا يمكنني تحمل النظر في وجوه الناس بعد الآن... كيف سنواجه العالم بعد اليوم؟"

تبقى الصدمة كما هي ليتابع أنس بصوت يكاد ينكسر من شدته:

"وأحب أن أضيف، إن شهاب طردنا من المنزل. اتهمها بأقسى الكلمات.. أنها خائنة ولا تستحق البقاء على ذمته، كما اتهمنا مثلها لإننا لم نربيها كما يجب"

وقبل خروج أنس من المكان يلتفت نحو غرام بنظرة حادة وصوت واثق:

"ستبقين تحت مراقبتنا الدقيقة يا غرام، لن نسمح لكِ بالتمادي أكثر من هذا."

في الفضاء المشحون بالأسى والصمت الموجع، يطوى المشهد ببطء. تُغلق غرام عينيها، كأنها تحاول حجب الواقع المرير، وفي قلبها شتاء لا تذوب عنه الثلوج.

الفصل السادس

في غرفة نور الأنيقة، تجلس وحيدة مع أفكارها المضطربة. تلك الغرفة التي كانت شاهدة على ساعات طويلة من التفكير في شهاب وشخصيته التي دائماً ما جعلته محور اهتمامها وتأملها.

مع دقات الساعة المتزايدة، تقرر أن تتواصل معه، تطبع الأرقام الآلية التي حفظتها عن ظهر قلب بينما يرتفع نبضها بشدة.

من الجهة الأخرى

شهاب، مُسيّج ببرود يخفي تحته جمر الغضب وخيبة الأمل، يجلس بمفرده في غرفة المعيشة الفسيحة. الجدران تحكي قصص الأوقات السعيدة التي مرت، عبر صور معلقة تعبر عن ذكريات بريئة لم تعد موجودة. يُفكر في ما وقع، وكيف وصلت الأمور إلى ما هي عليه، كيف انكشفت الأقنعة وحُرقت الجسور.

فجأة يقتحم صوت الهاتف تأملات شهاب، ينظر إليه بتثاقل. على الشاشة يظهر اسم "نور" – الاسم يلقي بموجة من التساؤلات. يتنهد بعمق مدركاً أن هذه المكالمة قد تحمل تداعيات جديدة للوضع المعقد الذي يعيشه. يقوم بالرد على الاتصال بصوت خالٍ من الحياة تماماً:

"نعم نور؟"

تشعر نور بنبض قلبها يصدح في صدرها مثل طبول حربية فور سماعها لصوت شهاب الهادئ والمحايد من الجهة الأخرى، تتجمع كلماتها في حلقها، تصارع التوتر والارتباك الذي اكتسح إحساسها بالثبات.

"كي... كيف حالك؟"

يدرك شهاب بحدسه بسهولة توتر نور من خلال نبرتها المترددة، وتظل سيل من الأفكار يجتاح عقله. لكنه يختار ألا يعير ذلك اهتماماً، ويوجه سؤاله بصوت ثابت وبرود لا مبالي:

"ماسبب اتصالك؟"

تلتقط نور نفساً عميقاً، لحظاتها ملؤها التلعثم، لكن الشجاعة بدأت تتدفق في عروقها. إنها بحاجة لمعرفة كل ما يعتمل في صدرها من أسئلة.

"شهاب، أريد أن أعرف ما الذي حدث بالضبط مع غرام... هل صحيح ما قوبلت به؟ خيانتها... هل... هل أنتما بخير الآن؟"

تتردد كلماتها في الفضاء، لتأتي إجابة شهاب كجليد يكسر الحرارة في الأجواء، ببساطة وبلغة الوقائع، دون تعبير أو انفعال يُذكر.

"لقد طلقتها."

تتسارع دقات قلب نور مجدداً وتُسكنها دوامة من الأحاسيس المضطربة. تُدرك بوضوح مدى الجدية في الأمر، ومع ذلك تلتقط جرأتها لتسأل أكثر، لتستكشف الأبعاد التي لا تراها، ولتعرف كيف يمكنها أن تقف إلى جانب صديق قديم في هذه اللحظات العصيبة، أو بالأصح من تمناه قلبها بكل جوارحه.

شهاب يلقي كلماته بمكر عارم، كمن يدور بخفة حول خصمه، ويسقط الكلمات بلمسات لؤم مسمومة:

"أليست الحقيقة عارية الآن؟ غرام وضعت الأوراق كلها على الطاولة، وهي تعلم عن حبك لي – لقد شاهدت كل الرسائل التي كنت تبعثينها إلي"

صوته يخلق أُفُقاً من التوقعات القادمة ليتابع:

"ربما الآن عليكِ مواجهة عاصفتها، كما واجهت هي زوبعة جنوني"

لا تفقد كلماته إيقاعها المحتمل بل تتقدم بمزيد الوطأة على نور:

"علمت غرام بكل ما دار بيننا منذ زمن طويل، لكن لم تكن تسعى لكشفي، كانت أهدافها مصوبة نحو ذلك اللعين رضا. لذا الآن عليك تحمل العواقب وحدك. وإذا قابلتها قولي لها على لساني أن مسرحية اليوم لم تنته، فالستار لم يُسدل بعد."

مع كل كلمة من شهاب، يزداد القلق سكناً في عينيها، عيون يخال فيهما شحوب القمر الذي اختفى وراء غيمة مظلمة.

داخل غرفتها المضاءة بشكل خافت، تجلس غرام بصمت، تبدو على وجهها علامات التحدي والعزم. الجدران التي كانت شاهدة على ضحكاتها في الأيام الخوالي تقف الآن صامتة، تحيط بها طيف من الوحدة أثناء تلاقي نظراتها المُصِرة مع انعكاسها في المرآة. لا تظهر عليها آثار الندم أو الضعف رغم كلمات اللوم والعتاب القاسية التي أنزلها عليها والديها كمطر شتائي بارد. بدلاً من ذلك، تظهر ملامح عزم لا يتزعزع.

مع كل نفس تأخذه، تزداد إصراراً على أخذ زمام المبادرة على حياتها. تمتد يدها بثبات نحو هاتفها الذي يلمع بوهج خافت على الطاولة الجانبية، تقلبه بين كفيها للحظة قبل أن تبدأ بطلب رقم رضا. هناك عاصفة من العواطف تجتاح صدرها، لكن قرارها أقوى من أي عاصفة، فهي مُقدّمة بكل جرأة نحو إعلان استقلالها العاطفي - إخباره بانفصالها عن شهاب.

غرام:

"رضا، هناك شيء يجب أن أقوله لك، أنا.."

رضا بصوت متحشرج ومليء بالأسى:

"غرام، أُريد أن أخبرك بأن... والدتي توفيت."

تشعر غرام بكلمات رضا كصاعقة تمر عبر الخط الهاتفي، يختنق صوتها وتصمت، تغرق في بحر من الصدمة.

يتابع رضا بصوته المثقل بالأسى والمعاناة:

"تذكرين ذاك اليوم حين طلبتي مني أن أبتعد؟ وطلبتي مني أن أدّعي أن والدتي قد ألمّ بها المرض الشديد؟ حينها اعتقدت باعتقاد جازم أنها ليست سوى ذريعةٍ من صنعك لنا بالفراق. مع ذلك تحولت تلك الذريعة إلى واقع مرير؛ فقد تفاقم المرض واجتاح جسدها بلا رحمة حتى أراد الله ووافتها المنية."

يأخذ رضا نفساً عميقاً يشبه الزفير الأخير للحظات مليئة بالألم، ودون انتظار كلمة من غرام، يضغط على زر إنهاء الاتصال. وكصدى لقراره يصمت الهاتف وتبقى غرام واقفةً في الظلام، ممسكة بالجهاز البارد، غارقةً في صمت مطبق.

لم تعد كلمات رضا تهمس في أذنها، لكن حدتها تتردد في عقلها، تحس بثقل يستقر على كتفيها. تدرك الآن بمرارة أنها لم تفقد شهاب وحسب، بل ورضا أيضاً. كلاهما اختفى من حياتها، تاركين خلفهم هوة عميقة من الندم والعزلة. تعلم أنها الآن ستواجه التبعات القاسية لقراراتها بمفردها، فكل خطوة مقبلة هي نحو مستقبل محفوف بالتحديات القائمة على أكتافها وحدها.

يجلس عربي في عزلته بغرفته، يراوده الإحساس بالضياع، وهو يفكر في الأحداث الأخيرة - إعصار الغضب، يفكر بعمق في سرعة وقوع الطلاق، كيف أن كلمة واحدة من شهاب قادرة على هدم عالم غرام.

يحتضن رأسه بين كفيه، يغلق عينيه ويحاول جاهداً تحليل سلسلة القرارات التي أدت إلى هذه النهاية المأساوية. يعيد في ذهنه كل لحظة، يتساءل أين كان بالإمكان تدارك الأمور أو تغيير مسارها. يأرقه التفكير في المستقبل الذي ينتظر غرام وأثر هذا الانفصال على النسيج الأسري. وعلى حياته أيضاً.

بينما يتراجع عربي في سراديب ذاكرته إلى تلك اللحظة المتوترة حيث تقف غرام محتدة.

:Flash Back

كان الغضب يتطاير من عينيها والإصرار يهزّ صوتها وهي تواجه شهاب:

"هل تظن أنك أفضل مني؟ أنت خائن أيضاً! أنا أعلم بكل ما فعلته، أعلم بالرسائل التي تتلقاها من نور وكيف كنت تبادلها الأحاديث. لقد أبقيتما التواصل سراً، أنت وصديقتي تخونان الثقة! لهذا لا تحملني وزر ما فعلت."

في هذه اللحظة يُترك عربي وأنس، شاهدين على هذه المواجهة، في حيرة من أمرهم عما يجب فعله للحيلولة دون تحول الوضع إلى جراح لا تندمل.

ووسط العاصفة العاطفية التي أثارتها غرام، يقف شهاب ساكناً كالجبل في مواجهة رياحها العاتية. يظهر عليه السكينة والبرودة وكأنه لا يتأثر بالاتهامات الملقاة عليه. فيأتي رده بهدوء:

"إذا كانت عيناكِ تريان الحق، فبإمكانكِ أن تري أنني لم أشاركها أي لحظة من لحظاتها، ولم أتبادل معها العواطف أو المشاعر. هي من كانت ترسل إلي دون كلل، وأنا لم أكن أبادلها الرسائل. أنا بريء من تلك الاتهامات."

يقطع أنس السكون الذي خيم على الغرفة كصدى يائس في وادٍ مهجور، بكلمات تحمل آمال الصلح ولكن بلا جدوى، يقول:

"أرى أن الأمور قد أحدثت سوء فهم بينكما، وقد تكونت الأحكام على عجل. إن كانت الرسائل هي ما أُثير حوله النزاع، فليكن هناك مجال لحوارٍ هادئ بحثاً عن التفاهم."

تلك العبارات برغم محاولاته الصافية، تستفز شهاب وتفجر بركان غضبه الذي أثارت فيه سوء فهم أعمق وألماً متأصلاً في جذور كبريائه وثقته. يتفوه شهاب بغضب متبرج:

"ومن أعلمك أن مسألة الخيانة مقتصرة فقط على الرسائل، ألم تُدرِكْ جليّاً من خلال تلك السطور التي يصف فيها تفاصيل لا ينبغي لعيون الغرباء أن تطلع عليها؟ كيف لك أن تتوقع أن يبقى الأمر في إطار التواصل المكتوب وأنت تعلم ما تحمله تلك الكلمات من دلالات وانتهاكات؟! لن أقبل اعتبار الشرف وجودة العرض قابلة للنقاش، ولن يحتوي قلبي هذه الخائنة بعد اليوم!"

ينطق بالطلاق كسيف قاطع لكل رابطة بينهما، وكأنه ينسف آخر جسر للعودة:

"أنت طالق! غادري بكل ما تحملين من شقاء هذا البيت. لا أريد أن يلوث اسمي بذكرى علاقتنا بعد الآن."

يترك شهاب الصمت يعم الفضاء مرة أخرى قبل أن يغرس سهام كلماته في أنس، محملاً إياه بثقل الفشل في تربية أخته:

"لقد خذلتموني يا أنس، خذلتموني ليس بالأفعال وحدها، بل بفشلكم في زرع القيم، الإخلاص والوفاء. لقد تُركت غرام دون تربية تعلّمها كيف تُبنى الحياة الزوجية على أسس متينة من الاحترام ورعاية سُمعة الزوج وحماية حرمة البيت."

يغطي عربي وجهه بكفيه، يتخذ الصمت ستاراً لغضبه المتفجر، أعينه تترجم قصة الضجيج الداخلي الذي لا يترجمه ضوضاء. يتابع شهاب كل خطوة يخطوها أنس وغرام المشلولة بصدمتها وهما يعبران عتبة المنزل للمرة الأخيرة، في حين ينهمر الصعداء من صدره.

تلتقط عينا عربي المحترقتان بلهب الصدمة، وميضاً خافتاً لشخصية شهاب المغمورة بنشوة الانتصار البغيضة. وبدون مقدمات ينتصب أمام شهاب ويبدأ بالتصفيق بطريقة باردة، كل صفقة تصدر برقعة من أجراس الموت لكل ما كان في هذا البيت من حياة وحب.

لا يبدر من عربي كلمة، لا ينفث سوى دخان غضبه الباطني في صمت مهيب يلتهم كل شيء. خارجاً من المنزل.

.End Flash Back

يتوقف همس الأفكار المتدفقة في عقل عربي عندما يخترق الصمت صوت رنين الهاتف، رنين لا يتمتع بنغمة مرحبة في لحظات التأمل هذه. يلقي نظرة إلى الجهاز الذي يبدو كأنه يتحداه أن يجبر الكلمات على الخروج من بين شفتيه. متنهداً بملل مجيباً:

"نعم مليكة..."

تتخلل صوت مليكة موجة من الدهشة الممزوجة بنبرة حزن خافت عندما تسمع ردّ عربي البارد. لتقول بلهجة محبطة:

"كنت أريد الاطمئنان عليك فقط، لم تسأل عني فأردت أن أسأل أنا."

يحس عربي بوطأة الكلمات التي عليه أن يوزنها بحرص. لا يريد أن يسترسل في الحديث ولا في شرح تفاصيل حاله الباطني، فالقلب موجوع والذهن مشتت والحديث عن شهاب هو آخر ما يود تداوله الآن. يجيب ببرود:

"لا شيء، أنا مشغول بموضوع شهاب لا أكثر، أحدثك فيما بعد."

كانت هذه الكلمات كدرع يحميه من مزيد من التعمق في مشاعره أو الإفصاح عن تلك الحقائق المخبأة خلف قلبه المثقل. من دون انتظار لردّ مليكة يضغط على زر إنهاء المكالمة ويضع الهاتف بعيداً.

تشعر مليكة ببحرٍ من الحزن وهي تحدق في شاشة هاتفها الصامت الآن، تنقلب ملامح وجهها لتجسد خليطاً من الاستياء والغصة.

الفصل السابع

كان عربي يقف مما يمنحه نظرة خلابة تكشف روعة دمشق العاصمة التي تنبض بالحياة في أوج النهار. يلفت نسيم دافئ وناعم انتباهه حيث يداعب الريح خصلات شعره بلطف، محملاً برائحة المدينة: خليط مميز من الحداثة والتراث.

متكىء جزئياً على سيارته اللامعة، يظهر في حالة تأمل، عيناه تائهتان في الأفق. هناك شيء في وجهه يقول إنه ينتظر شيئاً مهماً، وتعابيره تكشف عما يجول بخاطره من عزم وإصرار. يبدو جاداً وفي نفس الوقت متوتراً، كأن كل ثانية من الانتظار تزيد من ثقل الأمور على كتفيه.

هو في انتظار غرام التي من المفترض أن تصل في أي لحظة. يريد أن يصلح ما دمره شهاب. يعلم أن المهمة لن تكون سهلة، لكنه مصمم على محاولة إعادة الأمور إلى نصابها، أو على الأقل تقديم مساحة للشفاء والفهم، بعيداً عن الغضب والاتهامات التي قسمتهم.

يزداد الترقب والانتظار حين تظهر غرام أخيراً. خطواتها حاسمة ومليئة بالثقة، صورة لامرأة لم تستسلم لواقعها المؤلم بل تتحداه بشموخ طبيعي. ومع ذلك هناك غيمة من الحزن تطفو بعينيها، لمعة خاصة وعميقة تشي بخسارة لا يُفهمها إلا من عاشها.

بدون مقدمات وبصوت متشنج قليلاً يحمل آثار معارك داخلية خاضتها وتخوضها، تقول:

"ماذا تريد الآن؟ لا وقت لدي، فقد لاحقني فضح شهاب لي أمام الأهل وفي محضر أخي كنان وأثار هذا ضجة كبرى. لم يتسن لي إلا أن أباغت أهلي بخروج مفاجئ ولكن هو لحظي فقط"

حركاتها ليست مجرد آلية لفهم الآخر؛ إنها تمثل توتر ومأزق يعيشان في نفسها. وحين ترفع شعرها بهدوء، تلك الحركة الأنثوية التي طالما ألفها وتعتبر جزءاً من ذكرياته لها، يجد عربي نفسه مجدداً أمام لوحة تأسره. تلك اللمسة التي لطالما جذبته وجعلته عاشقاً لكل تفاصيلها.

"هل علم كنان أيضاً؟"

سؤال يخرج من عربي بثقل الهموم المتراكمة، معلناً عن قلق لا مفر منه عن شقيقها كنان وما قد يعنيه وقوع الخبر في أذنيه، شاهداً على عمق الأزمة التي تحيط بهما.

بطيف من السخرية تشوبه الاستهانة بما هو آتٍ، ترد غرام:

"أوه، كأن الخبر لم يكن كافياً حينما انتشر في آذان عائلتك وعائلتي. والآن كنان يعد العدة لي فور عودته إلى سوريا، يعد مؤامراته وتهديداته. تعلم بالطبع مدى عصبيته، وكأنه بركان يوشك على الانفجار!"

عربي، والجدية تكسو ملامحه يوجه نصحه لها:

"إنني مدرك للعاصفة التي تهدد بالانفجار، وبهذا فإن الأمر يتطلب منك العودة إلى شهاب. عليك أن تكشفي الحقيقة وتوضحي مبرراتك لتزيلي عن نفسك الاتهامات، وأن تستعيدي مكانك إلى جانبه. فإن لم تفعلي، فأخشى أن غضب كنان سيكون هو مصيرك المحتوم."

في تلك اللحظة، تزداد دهشة غرام وترفض:

"كل جسور التفاهم قد هُدمت بيني وبين شهاب، لا يوجد ما يجمعنا بعد الآن. لن يطوي شهاب صفحة ما حدث، وأنا بدوري لا أستطيع تحمل نبشه المستمر في الماضي، وحتى لو سعيت للعودة، كلي يقين بأنه لن يتقبلني مجدداً."

يتنهد بعمق قائلاً:

"ستحاولين، وسأكون إلى جانبك في مسعاك. سأبذل جهودي لإقناعه؛ قد يغير شهاب رأيه إن تمكنتِ من نفي الادعاءات التي أُلصقت بكِ. قولي له إن الأمور قد تم تأويلها بطريقة خاطئة، وحاولي أن تغيري من نظرته. بدوري سأعمل جاهداً لضمان ألا يعاود ملامتك على ما مضى"

غرام، التي تشعر بعبء الماضي على كتفيها، تصد بقوة وهي تضيف:

"علي أن أواجه في هذه الأثناء غضب كنان الذي لا أستطيع تصور شدته."

يجيب عربي بثبات:

"علينا إقناع شهاب واسترداده لثقتك. بعد ذلك سيكون هناك وقت كافٍ لنفكر في الحلول الممكنة."

تصمت غرام ليغلف وجه عربي القلق وطغت على صوته نبرة الحيرة، فتح ملف الأسئلة الدامية بسؤال خرج حذراً:

"ما مصير رضا؟ لقد تناهى إلى سمعي أن والدته كانت تكابد المرض."

غرام وكأنها تمثل كل ما يعني البرود واللامبالاة، استقبلت السؤال بوجهٍ لا ترتسم عليه أية تعابير، وأجابت بصوتٍ خالٍ من الحرارة:

"لقد انتقلت إلى رحمة الله."

اقتاد ذلك الخبر القاضي عربي إلى دهاليز من الشك، أحدثت في داخله زلزالاً من الأسئلة التي لا تجد لنفسها مرفأً. وفي شعورٍ بأن هناك المزيد مما تخفيه العيون والصمت، واصل بجرأة لا تخلو من حذر:

"يحيرني أن أسأل، وربما يكون السؤال وقحاً، ولكن ثمة حاجة في نفسي للوقوف على حقيقة الأمور. هل ما جرى بينكما كما روى شهاب؟ هل هناك دلالة في تلك الرسائل تُعطي مصداقية لما يُشاع؟"

الجمل تتدفق من عربي متقاطرة بثقلها ومحملة بظلال الشك والخوف من الإجابة التي قد تقلب الموازين.

تدور غرام في دوامة من الأفكار المتضاربة، معركة داخلية تعصف بها: هل تنطق بالحقيقة أم تواريها خلف جدار الصمت؟ تدرك تماماً وزن العواقب. تفكر ربما بحكمةٍ باردة في إخفاء الحقائق المؤلمة، وتحاول التودد من جديد لشهاب بعدما خسرت رضا إلى الأبد. غير أن القرار ليس بهذه البساطة؛ هناك كنان وغضبه الذي تخشى منه أكثر من أي شيء آخر.

تعلم أنها خائنة، تدرك أيضاً أنها تتصرف بأنانية، ولكن خوفها من غضب كنان يطغى على كل شيء. ومع ذلك فهي ترفض بإصرار أن تعطي عربي أو أي شخص آخر حتى ظلالاً من شكوكها وخوفها.

تخرج زفيراً ثقيلاً من أعماقها، وكأنها تطوي صفحة من كدر الروح، وتقول لعربي بصوتٍ يحمل خيبةً:

"لم يحدث شيء، إن تأويل شهاب للرسائل ليس حقيقي"

تظهر على وجه عربي علامات الارتياح المختلط بالتصديق، يؤمن بقوة شخصية غرام، الصراحة التي عُرفت بها. وبثقة يقول:

"حسناً، إذا كان الأمر كذلك فثمة مسار نستطيع أن نخطو عبره نحو الفهم والتصالح. سأتجه إلى شهاب ونبذل معاً جهداً لرتق ما تهدل من سوء التفاهم."

تلاقيه غرام بإيماءة غير مبالية، رأسها يطأطئ قليلاً دون أن ترفع عينيها لتلاقي عينيه؛ فهو تماماً عكسها، ينظر إليها وكأنه لا يرى في العالم سواها، وكأن الكون كله تجمد حيث تقف هي فقط.

مشهد يقترب من الهدوء المُخيف. الأجواء ترتجف تحت وطأة خبر يتسلل كالصاعقة بين جدران البيت. كنان بحجم الغضب الذي لا يقاس، صورة للكرامة الممزقة، قبضتا يداه متشابكتان كحبل من الحديد. يقف هناك يحملق في الفراغ، يكاد يبتلع جمر الخيبة بصدره الحانق.

"خيانة؟" كلمة تخرج متفحمة من بين شفاه مزمومة، ينطقها وعيناه تسبحان في بحر من الذكريات الساخطة. تقلب صور العائلة، الشرف، العهود المقدسة في مخيلته، ترتطم بجدران فكره. هو الآن يقف كجبل تهزه رياح الغدر العاصفة، متجذراً في مأساة لم يكن ليختارها.

تتحول معالم وجهه إلى حقل من المشاعر المتفجرة، جبينه المتقطب يسرد قصص الصدمة والنفور، وعروقه البارزة خرائط لحدود الغضب الجديدة التي تمضي به خارج نطاق الصبر. يعلو هدير صوته مثل دوي الرعد، ترتعد له الجدران ويصدى في أرجاء المكان:

"كيف يمكن؟ هل هذا ما ورثناه؟"

وميض من الضوء الخافت يتراقص على جدران الغرفة، يعكس خطوات سيرين المتثاقلة وهي تتقدم نحو كنان الغاضب.

"أعلم حجم المشكلة التي حدثت، ولكن أرجوك أن تلقي برحالك خارج دائرة الغضب للحظة وتأخذ الأمور بروية حبيبي"

تتساب كلماتها بنعومة الحرير، تحاول أن تكون بلسماً في جرح متفجر.

يقابلها نظر كنان، نظرة جامدة ساكنة بين طياتها بركان يتأهب للانفجار، ثم ينفث كلماته كاللهب الساخن:

"مشكلة! هذه تعتبرينها مشكلة؟ الخيانة مشكلة؟ ما بكِ؟"

خروج صوته في النهاية كصرخة ترتج لها أركان المكان وتتراجع سيرين خطوة متأثرة بهيجان العواصف في صدره.

تجتهد سيرين بحنكة مستمدة من عمق دراستها النفسية، مد لها طريقاً فيما بين المشاعر الجياشة والعقل الهائج، تقول بصوت يشبه النسيم:

"أتفهم تماماً العاصفة التي تجتاح صدرك، لكن دعنا نبحث في غيمة الواقع عن خيط الفجر. لربما الحقائق أعمق من أن ترى بمرآة الجراح، لربما هناك التباس نحتاج إلى نزعه قبل الحكم. غرام حتى في خطئها، لا تمتد يدها لشرف العائلة بسوء، أنا مؤمنة بذلك".

لكن كنان، كبؤرة الإعصار يبقى مملوءاً بالحركة والزوبعة، يجيب بقسوة مستمدة من اليقين المرير:

"لماذا تزينين لها خطيئتها؟ الحقيقة عارية أمامي، شهاب أخيكِ اللعين، لم يفته أن يطلق سهام الفضيحة ليصيب قلب العائلة والأقارب، مشهراً كل الرسائل ليعلن عن سوء فعل غرام أمامهم جميعاً".

يتلاطم الحزن مع الغضب في نبرات كلماته، كلمة "اللعين" تلهب الأذن و"الفضيحة" تحفر عمق جروحه. جدران الغرفة تصبح شاهدة على زوبعة من المشاعر الانسانية.

سيرين تتحلّى بصبر البحر في مواجهة العاصفة:

"كنان، الغضب مثل الريح يمكنه أن يسقط الأوراق، لكن الحقيقة تبقى ثابتة مثل الجذور في الأرض. الرسائل التي أرسلها شهاب قد فضحت الأسرار، لكن ثق بي عندما أقول إن الحكم على غرام يجب ألا يُبنى على شظايا أحكام ممزوجة بالغضب. لنفسح المجال للعقل أن ينير دربنا قبل أن نُعمد إلى الحكم".

كان الغضب يتدفق في صوته:

"لا، لن أجد في قلبي زاوية للهدوء قبل أن أستقر أمام تلك التي ألقت بعرضها وسط العواصف. ستراني أخطو خطواتي القادمة نحو سوريا في أقرب فرصة يسمح بها الزمان، وأنت سترافقينني، لتُكحلي عينيك بمنظر العدالة التي سأنهال بها على تلك الأخت العابثة. أقسم بكل ما للكلمة من وقع أني سأجد لها حلاً. سأرتب الأمور كلها"

ترتجف الكلمات القادمة من أعماقه وتتصادم في الهواء مثل الأصداء القادمة من قلب العاصفة. العزم في صوته ممزوج بمشاعر الغضب والإحباط، والوعيد يفوح من بين طيات النية الراسخة لديه.

تتأمل سيرين ملامح كنان التي تحمل على جبينها علامات القرار، وتمتلك الحكمة لتعي أن الكلمات في هذه اللحظة قد لا تشفي الآلام، ولكن في صمتها تُعِد الجسور التي قد يمر منها النور بعد حلول الظلام في قلوبهم. تكتفي بأن تضع يدها برفق على كتف كنان، وكأنها تحاول أن تُثقل كفة العقل لتوازن كفة العاطفة المتأججة.

ترتجف يدا سيرين بمشاعر متضاربة وهي تضغط على الأزرار لإجراء مكالمة هاتفية مع شهاب. تتملكها نبرة تلوح بالتوتر وهي تنطق بكلماتها وقوفاً أمام العواصف القادمة:

"شهاب، كيف أقدمتَ على إرسال تلك الرسائل والمحادثات التي تخص غرام إلى كنان؟ ألا تعرف مدى غضبه وما يمكن أن يفعله؟ ما بك؟"

يجيب شهاب ببرود:

"وما كان يجدر بي أن أفعل بعد خيانتها؟ أن أُصفق لتصرفاتها؟ أن أكللها بوشاح الفخر؟ لتتحمل عواقب أفعالها، وكنان زوجكِ له أن يلقنها درساً يليق بها. هو القادر على كسر هيبتها وروحها المتمردة."

تصيب سيرين الصدمة من ردة فعل أخيها وسُمِّيَةُ كلماته، فيستمر شهاب بابتسامة ماكرة تخترق السماعة:

"أتعلمين، أجد في كنان عمقاً وقدرة لم يصل إليها ذاك الرقيق الحساس أنس، غضب كنان يمتلك قدرة هائلة على محو غرام، وقد أدركت جيداً لمن أوصل فضيحتها."

تزفر سيرين بحدة:

"لكن إن كان الأمر يخص كنان، فلماذا تُنشر غسيلها أمام الأقارب؟"

يُقحم شهاب سخريته في الحوار:

"ليعرفون حقيقتها، كما تعلمين، غرام تمتلك جمالاً خارقاً، وعديدٌ من الشباب في العائلة تمنوا وصالها. لذا أغلقتُ الأبواب كافةً في وجهها. وبالنسبة لرضا، حسابه عسير معي حال عودته."

يلفها اليأس وهي تلتمس شفاعة في ردها:

"أخي، أرجوك تراجع عن هذا، غرام لا تجلب العار، أعرفها جيداً، حاول أن تُصلح ما أفسدت، أرجوك."

يعلو ضحك شهاب قبل انقطاع الخط بغضب:

"إصلاح؟ يا لكِ من ساذجة! سأجعل الويلات تتبعها ولن تسلم من ليليَّ الحالك. ستدفع ثمناً باهظاً وسترين ذلك."

تنتهي المكالمة وتبقى سيرين تنازع تلاطم أمواج عقلها، تعلم عمق جنون أخيها وشدة ثأره.

خلال أصداء حديث الخلاف، تتسرب لحظة إدراك ثاقبة إلى وعي سيرين، تشد من عزمها وهي تستجمع شتات شجاعتها لتكسر حاجز الصمت. لتظفر برقم عربي، القلب الهائم في حديث ساحر مع مليكة.

في المطعم المكتظ بالرواد، يسود الهمس بين طاولة تغمرها الأضواء الخافتة. الابتسامة الباهتة كاللوحة الفنية تزين وجه عربي، بينما مليكة تغرق في تفاصيل زواجهما المرتقب، تجسّد بكلماتها قلعة أحلام يعانق بناؤها السحاب. وفجأة يقتحم رنين الهاتف حوارهما لينسج عربي بصوته المرحب:

"أهلاً حبيبتي."

تتصاعد على شفاه سيرين ابتسامة رقيقة محمّلة بالحنان رغم مرارة الخبر الذي تحمله:

"اشتقت لك جداً يا عربي."

يغمر الدفء قلب عربي وهو يرد:

"لا يختلف حالي عن حالك يا مدلّلة العائلة."

ترد سيرين بضحكة خفيضة. يستهويها دائماً لقبها العائلي، لتجلجل في صدرها ضحكة تهزم عتمة القلق فتقول:

"عربي، الموقف عميق في تعقيداته، شهاب يهدد بحساب أهوج قد فاحت ناره ولا تعرف كظمها، هو الآن ينفث سمومه بين الأقارب، يعلم دقّة المسألة مع كنان ومدى سرعة اشتعاله. رعب الفكرة يسكنني، أخاف مما قد يترتب على عبث شهاب. يقسم كنان بالعودة إلى سوريا، حاول رأب الصدع، رتب الأمور مع شهاب، فغرام لم تعرف إلا الصفاء، وأقسم ببراءتها، لكن شهاب كحصن منيع أمام عقله."

تتسرب الكلمات من بين أنفاس سيرين كالنسمة الليلية، تعرف أن قلب عربي العائلي لا يعرف إلا المحبة والسعي إلى الصلاح.

يسلم جسد عربي لنفس عميق كأنه يقتلع بثقله الهموم من صدره، ويستقر الوقار في قوله:

"آه من شهاب وتصرفاته الآتية بالعواصف وما يخبئه الحظ لغرام، وكأنما حالي مرتبط بلولب القدر! أقسم لك أختي، بأني لن أدخر جهداً، وسأستثمر كل فرصة للحديث مع شهاب؛ فلا تغمري قلبك بالقلق. أما أنت فبمهارتك عطِّلي سفر كنان إلى أن نجد خيطاً يقودنا إلى الحل."

وتستدرك سيرين بقوة القرار المتجددة:

"الآن يا عربي، توجه إليه فوراً ولا تؤجل الأمر! كأنما العمى أصاب بصيرته، وكرامته في زعمه مبعثرة على الأرض. أفهم شعوره نعم، لكن تلك الرسائل السخيفة ليست بدليل على زلة غرام. إننا نعرفها جميعاً، وكيف كان وفاؤها لشهاب ولنفسها وللعائلة. أرجوك، افعل شيئاً!"

ويصدح صوت عربي بتنهيدة قوية، وكأن العزم يتأهب للقفز من كلماته:

"حاضر حبيبتي. سأتصرف الآن، فقط حاولي الحفاظ على هدوئك. ولا تنسي أن ترسلي قبلات لتلك القطة الصغيرة."

تكسو وجه سيرين ابتسامة لطيفة ممزوجة بالأمل وتواصل:

"حسناً، اتصل بي فيما بعد لتُطلعني على ما جرى في حديثك مع شهاب."

وبعدما يوافق ويختتم الاتصال، يلتفت عربي إلى مليكة، تلك التي كانت تقف متحجرةً في محراب الصمت، وتهمس بصوتٍ خافت يملؤه الشك:

"ما الأمر يا عربي؟ ماذا جدّ في قضية غرام وشهاب؟"

يكاد الأسى يطفو على سطح كلمات عربي حين يجيب:

"أتعلمين، إن الكارثة التي يصنعها شهاب وما قد يرتكبه كنان عند رجوعه شغل شاغلي. أحيط بالخوف على غرام من اندفاع أخيها، وتتابع همومي الخوف على سيرين. أخشى أن تُشوه حياتها مع كنان بفعل هذه الأزمة."

تتملك مليكة حيرة متعاظمة فتستفسر:

"ولماذا هذا الاكتراث لغرام؟ ما الذي يجعلها ذات أهمية بالغة إليك؟"

ومن غير اضطراب، يطلق عربي كلماته كالسهام:

"لأن غرام في البدء والأصل قريبتي، وفي المقام اللاحق زوجة أخي، وتأتي في الحسبان شقيقة زوج أختي."

وتسكت مليكة على مضض، فيما يستدير عربي بثقة ليعلن عن رحيله المفاجئ:

"يتوجب عليّ الآن اللقاء بشهاب. أعتذر منك، لكني أعدك بموعد آخر. إلى اللقاء."

ثم يغادر عربي المكان على عجل بعد أن يُسوي الحساب، تاركاً مليكة وقد غلَّف الدهشة والخيبة محياها، وهي تشهد على آثار خطواته التي تتلاشى بين الزحام، وفي قلبها تتواتر نبضات الحيرة والاضطراب.

الفصل الثامن

ينظر شهاب إلى عربي بملامح مكفهرة، فيخطو شهاب إلى الداخل دون أن يهدي أخاه دعوة للإيواء، فيتبعه عربي.

لا يمهل عربي نفسه لالتقاط الأنفاس قبل أن يغرق في بحر الموضوع قائلاً بحزم:

"لقد صفا لي اليقين من نقاء غرام، عليك أن تعيدها إليك."

شهاب، متمسكاً بواقعه الذي خطّه بأنامل السخرية، يستدير ويحيك ابتسامة لاذعة:

"يبدو أن النسيان خربش ذاكرتك يا أخي الكبير، ألا تتذكر كيف طُمِست الحقائق في هذه الدعوى؟ فاصمت عن التدخل."

ويتخلّل الحوار نفس عربي العميق، يقاوم فيه الطوفان العاطفي إذ يجلس مستعيداً بهجته الداخلية مواجهاً شهاب:

"كل ما في الأمر أنه كان لابد من كشف الغمة، وإثبات الحقيقة لا أكثر"

يتراقص ضحك شهاب الخفيف وسط الكلمات:

"اسمع يا عربي، قد فتحت لك الباب لتعبث في هذا الشأن أكثر من اللازم، وليس لأنك أخي الأكبر، بل لإنني كنت أظن أنك حامل للأمانة، ولكنها كما اتضح لا تليق بك."

عربي، في همس يداعب الهزلية بنبرته:

"كأنه قد مر ببالك خيانتك أنت أيضاً لذات تلك الزوجة التي تجرّمها."

وبقهقهة جديدة يرد شهاب بتحدي:

"أجل، أطفئ ما في قلبك من نيران، ليس منك ما يدهشني."

يهتز عربي بغضب ويهبّ قائلاً:

"شهاب، احذر في طريقة كلامك معي، فلا يعلو في قائمة همّي سواك أنت وأختنا سيرين. لا أرغب برؤية حياتك في طريقها للدمار، ولا أطمح لهدم بيت سيرين جراء تلك الضغوط الجائرة التي تفرضها على زوجها، ما ذنب كنان فيما اقترفته غرام إن كنت ثابتاً على اعتقادك بخيانتها؟ لم الرغبة في قلب دنيا أختك رأساً على عقب بجنونك هذا؟"

شهاب ببرود مصطنع ولا يكترث لثورة عربي، فيقول:

"ذنبه أنه شقيقها، أنه كبير عليها، أن لم يتعب قط في نسج أداءها، أعطوها كل ما يحلو لها حتى تمردت وراحت تعلن التمرد عليّ."

ويبطل عربي استدلاله قائلاً:

"لم يكن صحيحاً! الدلال لا يفسد فطرة الفتاة وأخلاقها. ها هي أختك، رعيناها بكل ما أوتينا، جلبنا كل طلباتها، وما قصُّرنا في جعبتنا، وها هي تجيد التحكم في عاصفة كنان، تهدئ من روعه كطفل صغير بين يديها. لماذا تصر على هذه الرُؤية؟ وإن كنت مقتنعاً بأن دلالهم لغرام قد قادها لخيانتك، فما الذي دعاك للارتباط بها من البداية؟"

إجابة شهاب تتساقط بالملل:

"وكيف لي أن أدري بتحولات المستقبل؟ كما أنه إذا ما كانت سيرين تملك فن التهدئة لزوجها وتسكُّن غضبه كطفل صغير فلماذا إذًا لم تفلح في استئناف دورها الآن؟ لمَ ترسل إلي تشتكي؟ إذا كانت مؤهلة لذلك حقاً، فلتطبق سحرها لإعادة هدوء البركان الهائج."

يتسلل التعب إلى ملامح عربي، وترخى أنفاسه مشحونة بالاستسلام:

"لا أدري لماذا يسود اليأس أروقة نفسي عند الحديث إليك."

يقفز شهاب كصاعقة، يلقي كلماته في وجه عربي كأنها جمرات:

"لأنك لم تُعتصر ألماً بخيانة من زرعتها في تربة قلبك، لم تلمح بأم عينيك شيفرة الغرام تتبادلها مع سواك... هل تفهم الآن؟!"

يحاول عربي ردم الهوة بينهما بصبر الأخوّة ورفقها:

"أدرك مدى الجرح الذي بداخلك، وأقدّر صبرك الثقيل. لكنك تتخذ من القصاص جسراً إلى دوامة الضياع. إسأل نفسك، متى تنفضح الأسرار، كيف يصّوغ الناس حديثهم؟ فسينطقون بما لا يُحَمَّد وقعه عنك وعنها، سيكتبون القصة على مقاس أحكامهم، ألا ترى أن ضررك يسبق ضررها، ويصل لأختك وكنان وكل من يقف بينكم؟"

شهاب، كأنما تتقاذفه أمواج الإقناع والتردد، ينظر في عمق عربي، تتماوج الكلمات في ذهنه ويروّض صوته ببطء:

"ماذا ترغب أن أفعل الآن؟"

يُنير وجه عربي بابتسامة الحب الأخوي ويضع كفه الدافئ على كتف شهاب:

"أرغب أن تنير عقلك ووعيك. اسعَ للصلح، اسع لاستخلاص الحقيقة، فأنا متيقن من وفاء غرام، أنها لم تتجاوز حدود الوفاء كما تظن، ثقتي مطلقة."

يغرق شهاب في بحر التفكير، قلبه معبأ بالصبر اللاهث:

"سأنظر في الأمر، لكن لا تتوقع أن أقدم وعداً بإعادتها."

ويرقّ قلب عربي مُعبراًعن تفهّمه:

"ريثما يمهلك الزمان فرصة للتفكير. وحتى يعلن الوقت ختامه، أرجو ألا تفتح الستار على ما يمكن اخفاءه؛ فالأمر يتعلق بكرامتك شخصياً، وكرامة عائلتين."

ويهز شهاب رأسه بالموافقة، تجمُّد ملامحه يخفي عاصفة الأفكار، بينما ينسحب عربي بهدوء.

بينما يغادر عربي أسوار دار شهاب المثقلة بالحكايا، يعانق جيبه نغمة الهاتف المنبهة لمكالمة قادمة. غرام، ذاك الاسم المتأرجح بين شفى الغفران وعرف الاتهام. يرد باحترافية المواقف العصيبة:

"أهلاً غرام."

بلا مقدمات تشقّ غرام الصمت:

"ماذا حدث بخصوص شهاب؟"

عربي:

"لقد تحدثت معه وسيمنح الموقف حيزاً من التفكير، لا تقلقي."

"حسناً شكراً لك، الآن لدي ما سأفعله."

تنعقد الحيرة على جبين عربي:

"ماذا تعنين؟"

ببرود يكاد يقطُر إيلاماً:

"حان وقت محاسبة نور، التي أسميتها يوماً صديقة."

عربي ينطق بصرامة:

"لا يا غرام، لن تنهمكي في تهورات مماثلة لتلك التي يغرق فيها شهاب. ما وقع قد وقع، اكتفي بقطع الصلة ولتنتهي القصة هنا."

غرام بصرامة مماثلة:

"لن يخط لي أحد مساري، أنا صاحبة القرار. أرجوك كن بعيداً عن هذا الأمر، إلا إذا كان الهمّ يأكلك لأجل تلك التافهة."

عربي يُجلِّذ أسنانه، والغضب يتسرب إليه كالسم:

"ما شأني بها لأنشغل بأمرها؟ افعلي ما يحلو لك، أما أنا فدوري يقتصر على موضوع شهاب وحسب."

غرام، ضحكتها ملونة بظل سخرية:

"آه، صحيح. نسيت أنك على وشك بناء رواية جديدة مع مليكة. أليس كذلك؟ اختيارك مُوفق يا شقيق زوجي... أو ربما الأدقّ شقيق طليقي، مع السلامة."

تقطع الاتصال وتترك صدى ضحكاتها المتهكمة تترامى على قلب عربي الذي يضرب مقود سيارته في تفجير لجمر الغضب المكنون. تمنى لبرهة أن تكون أمامه ليُريها كيف يجب أن تخاطبه؛ تلك الماكرة الجميلة التي أثارت فيه غضب غير معتاد، ولكن الإعجاب المتهور يترقب في زاوية ظلّه.

تطأ غرام عتبات الغرفة حاملة وشاح الصقيع على كتفيها، بينما تتراجع والدة نور خلف الباب. يكفهر وجه نور بالقلق المفاجئ لدى استشراف طيف غرام الذي يقطع جدران الصمت.

"أهلاً غرام، تفضلي"

تلك هي كلمات نور المتأرجحة بين الحماس والخوف.

صفعة تُلوي وجه نور نحو الاندهاش، وتترنح الغرفة قليلاً مع صدى تلك الحركة. نور والصدمة تتجلى فوق ملامحها، تضم يدها إلى خدها المُحمرّ، وتلتقط نظرات غرام الغارقة في عمق الشراسة:

"جئت لأُلقِنَكِ درساً في معرفة قدركِ، أنتِ التي أسكنتُكِ بين ضلوعي أكثر من روحي."

ينكسر كبرياء نور تحت قطرات الألم التي تختار السقوط من عينيها، لتتابع غرام:

"لا تتوهمي أنني صامتة ضعفاً، لا وألف لا، كنت فقط أترّقب إلى أي مدينة ستهاجر الأمور. هل للوجه الذي يقابلني بالاعتراف، أم للقلب النادم، أم اللهث خلف اللامبالاة."

يأبى جفاف نور التلاشي وتبثّ بجمود مثقل:

"هل تعنين أنك أهملتي الكلام لأن شهاب لم يعُد يعني لكِ شيئاً؟ أم كل همّك كان رضا، أعرف جيداً ما تخفين وسكتّ عنك، أنتِ هملتِ البوح وأنا كذلك."

تمايل رأس غرام على وقع إيقاع الرضا الخبيث، وفوق شفتيها ابتسامة كأنما نسجت من الظلال: "بلى، كلانا كان له دواعٍ لإخفاء ما يختلج بالصدور. أفهم موقفك، ولكن اللحظة قد دقت إعلان نهاية مشوار الصمت هذا. سأستعيد مقامي لدى شهاب وسأبسط سطوتي في منزله مجدداً. يجب أن أعرّفكِ بحقيقة مركزكِ، وأني لو شئت قد أعبث بتوازن حياتك وأفقد شقيقتكِ استقرارها، التي هي زوجة أخي، فما زلتُ صامتة عن فعلتك، قادرة على تحريك القطع كما أشاء، فاحذري ومن الآن لا تجرؤي على لقائي."

ثمة شيء في نظرات نور، إحساس بالتحدّي المُضمَر وغل يفور من تحت الظاهر، تدير وجهها بعيداً مشيرة إلى رفض وازدراء، في حين غرام بعينين يتلألأ فيهما الاستهجان تستعرض قوتها الداخلية.

وفي أثناء تشبث غرام بملامح الانتصار السامّ، يتجلى وجه ياسمين بالغرفة كمشهد من لوحة القدر الفجائية لتقول غرام:

"لم تأبهوا أبداً لمعنى التربية، لذا جئت لتلقين شقيقتك بعضاً من تلك الثقافة."

تعدل ياسمين قامتها وتتقاطع يديها كأنها تصنع حاجزاً منيعاً:

"أشبه بك تماماً، فالظاهر أن عائلتك لم تنجح في ترويض طباعكِ الفوضوية يا غرام، أم أنكِ اخترتِ الغفلة عن فضيحتك وجئتِ لمحاسبة الآخرين."

تتوهج غرام كاللهيب المتأجج وتحذر بقسوة:

"إياكِ وإلقاء التهم علي، فشقيقتك هي من نظرت إلى رجلي. لقد احتضنتها كأختٍ لي، إلا أنها تجرأت وسلكت درب الغدر."

تواجهها ياسمين بالقسوة نفسها:

"وأنت احذري أن تعيدي إلقاء التهديدات حول حياتي مع زوجي، فإذا ما اختارت امرأةٌ كطينتك المهاجمة وهي من دنّسَت سمعتها، أقسم أن الصمت لن يكون خاتمتي، فكرامتي جوهرة لا تُباع ولو أن الأمر ليشمل زوجي."

تمتلئ عيون غرام بظلال الحقد المتواري وتغادر المكان تاركةً صدى الحقيقة والتحدي يفصل بين نور وياسمين المتصلبتين.

غرام، المرأة ذات الوقار المنمّق كأسوار قلعة عتيقة، تقف على أرض الواقع بثبات ولكنها من داخلها معتصرة بين مطارق الادعاء وسندان اليقين الدفين. فطبقات نفسها العميقة تغلي بما هو أبعد من الغليان؛ حيث تجري تحت الجلد نهراً من تأنيب الضمير، تعرف تمام العلم بأنها المخطئة، لكنها تمثل دور البراءة بمشهد لا يشوبه تردد.

تُلقي بنظراتها الاتهامية على العالم، والحِمل الثقيل ينزاح للحظة من على كتفيها، فهي تنسي خيانتها أو تتناساها، وتستبدلها بستار من الغضب الصاخب الظاهر لكل عين تراقب الخزي، هي التي لا تليق بها إلا الأدوار الرئيسة، التي لطالما شدت أواصر القوة حول قلبها وعقلها، تنأى عن فكرة الاعتراف أو حتى الاقرار بالهزيمة.

تتحرك على خشبة الحياة متقنة أقنعة الضعف والجرح، فكل خطوة تخطوها نحو تثبيت دورها المظلوم يصاحبها إيقاع حثيث من النفس المكابر. تسعى ليس فقط لإقناع الآخرين، بل لإقناع الذات التي تبكي في صمت على انكسارات لا ترى. وما كانت حكاية غرام مع رضا إلا بابُ آهات مواربة، فمنه لم تجنِ إلا الخيبة، ومن مساحيق التعاسة التي ألبسها قلبها، اختنق الأمل وتكالبت النهايات المظلمة.

تسكب من فيض جبروتها بأسلوب الغزاة المترفعين، وهي تعلم في صميم فؤادها أن مسرحيتها ليست إلا دوّامة عنيفة من الخيلاء الذي لا يحجب إلا ظلال الخسارة التي تتلبد في أفقها المعتم.

الفصل التاسع

خطت الأيام خطواتها بخفة وتؤدة، تاركةً وراءها أثراً من السكون يكتنف الأرواح، كشال هادئ يحتضن الوجود بحنان.

في العمق المكسو بأثاث خشبي ثقيل وملفات مرتبة بعناية، كانت تجلس غرام في مكتبها، محدقة في عمق مستندات القضية التي تعمل عليها. الهدوء يسود المكان معنقاً بصمت الكتب والأوراق. فجأة، تقطع الرتابة دقات على الباب، مُعلنةً عن وصول شخص قاصداً مكتبها. يتمهل الزائر للحظة قبل أن يبوح بخبر قدومه، وهو يمد يده مُقدماً لها مظروفاً مختوماً بختم المحكمة.

تتنقل نظراتها بين الوجه البارد للمُرسل والمظروف الممدود أمامها. بمهارة يدٍ اعتادت على مواجهة الصدمات القانونية، تفتح غرام الختم لتكشف عن محتوياته بثبات، على الرغم من أن نبضها بدأ يغني معزوفة

الاضطراب. وهي تقرأ كلمات الوثيقة - "دعوة للطلاق" – تستقر عيناها لبرهة على تلك الكلمات، ومن ثم تعود ببطء للنظر إلى المبعوث. هنالك بريق يعكس خبرةً بالظواهر القانونية وينذر بالعزيمة على التعامل مع الظروف مهما اشتدت.

تزفر غرام بعمق، وتضع الدعوة جانباً قبل أن تُفيق من غيابها القصير، موجهة حديثها للزائر بصوت رصين ومحترم:

"شكراً لك، أستطيع أن أتولى الأمور من هنا."

بعد لحظات يظهر شهاب فيخيم صمت على المكان، لكن ما يعقبه من حوار يترك صدى لا يمكن تجاهله. ظلت كالصخرة في مواجهة أعاصير الحياة، تلتقط النظرة الذاتية المصطنعة من شهاب، فتبدو عليها ملامح البرودة التي تخفي تحتها تلاطم أمواج الغضب.

لفظ شهاب الكلمات بمكر:

"أرى أنكِ عدتِ لحياتكِ الاعتيادية، غارقةً في شؤون الآخرين ومعضلاتهم، لكن يا عزيزتي، لقد تناسيتِ على ما يبدو بؤس قضيتكِ الخاصة."

وقفت غرام صامدة كصبار الصحراء وردت بثقة مشوبةٍ ببرود:

"لماذا تجشمتَ عناء إرسال ورقة الطلاق إلى مكان عملي؟"

انسابت من شهاب ضحكة عابرة كطيفِ ليل خائب وهو يقول:

"لقد جلبتِ لي دوماً الأخبار في عملكِ وعن غزل، تلك الصديقة التي توزع الضغائن مكان المودة." تحوّل الهمس إلى زهو، "غزل، التي تكنّ لكِ الغيرة المسمومة والكراهية العتيقة، واليوم، أهديتُ لكِ ورقة الطلاق أمامها كتتويج لتراجيديا غيرتها. وأردتُ سرد حقيقة الإنفصال على مسمع منها."

ثم أعلن شهاب بصوت مرتفع:

"الخيانة، هي ما دمّر الرابط بيننا، إياكِ أن تنكري ذلك."

وبابتسامة تُنبئ بالاستمتاع بما مضى تمتم:

"ليس هناك المزيد لأزيده."

ختم حديثه بتنهيدة تترجم صدى الماضي وصورة المستقبل المُحتمل:

"أوه، إن جحيم أنس وكنان شقيقيكِ وأعتى مدافعيك قد استقر مؤقتاً. ظناً بسذاجة أن هناك احتمالية لاستعادة ما تبقى وتصحيح المفهوم المشوه. لكن سرعان ما ستثار العواصف من جديد، وتطيح بعزتكِ التي تتمسكين بها وينكسر شموخك اللعين هذا."

وهكذا انسلّ شهاب إلى خارج المكان، مخلفاً وراءه صدى كلماته الثقيلة، كأغصان جافة تتكسر تحت أقدام المارة. تاركاً غرام في وحدة تأمل مخيفة، لا تصدر عنها سوى إشارات الانكسار الذاخرة بالقوة. أما غزل فمن ناحيتها، تعيش تمزق بين الصدمة والسرور الخبيث، تستر سراً بابتسامة تكاد تفلت من بين الأقنعة المتهالكة.

تقتحم غرام المكتب كغيمة صاخبة تسبق العاصفة، وبحركة قوية تلقي بالباب يصفق خلفها مُعلناً عن بدء مواجهة. تقف والغضب يلفح ملامحها وتقذف بكلماتها كسهام مُشتعلة:

"أخبرني، أهذا مسعاك للتفاوض أم تهيئة لإعصار يُفني ما تبقى من حياتي؟"

عربي الذي لون وقاره مساحة المكان، ينهض كالأسد الذي أُثيرت حفيظته، وقد ارتسمت على قسماته مظاهر الصرامة:

"هل نسيتِ قواعد التهذيب في الدخول؟ يُفترض أن تُعامليني باحترام. وتدخلين علي باحترام، هل تسمعين؟"

لكن غرام التي كان الغضب قد أشعل فيها نيراناً لا تُطفأ، تتحدى الصقيع بحرارة جوابها:

"لا! صمّت أُذناي عن سماع تعاليمك المُنمقة. إني أدخل كيفما يروق لي وعندما أشاء. وها هو شقيقك يبثُّ سُمومه ليس فقط في عروق العائلة، بل ينخر في سُمعتي بين رفاق العمل!"

عربي، مصدوماً والذهول يُشوش تفكيره، يُعيد صياغة استفهامه كأنه لم يُصدق ما سمع:

"ماذا تقولين؟"

"كما سمعت، أُرسل وثيقة الطلاق إلى مكان عملي وبلغة الوقاحة الكبرى، وكانت غزل تلك الأفعى شاهدة على الإذلال!"

عربي، بنفسه المُتهدجة وعباراته التي يبعثها كالنسمات في محاولة لتلطيف الأجواء، يهمس:

"اهدأي فقط، سأحفظ كرامتك، ولن يمر الموقف مرور الكرام"

غرام محتدمة كنيران الحقد القديم:

"أي كرامة تقصّ بها حديثك؟ أنا من سترتد الأقدار لأقصى مداها إلى رأسه. سأتعهد بتعليمه درساً في فنون الوقوف أمامي."

تصل سخونة غضبها إلى عربي، ليتردد صدى الغضب في صوته:

"لو كنتِ حقاً قادرة على رسم حدود قدره، فلم التوسّل إلى عتبتي؟ لِمَ لا تشقّين الطريق إليه مباشرةً وتُعلنين الصراع؟"

وتُلقي غرام بلهيب كلماتها:

"لأنني يا عربي قد استلهمت منك وعداً، وعداً بأن تكون لي السند الذي يُسكت العواصف. ومع ذلك اختفت الوعود وتعاظمت الأزمات. لم تبلُغ رجولتك التي تحملها قدر الوفاء بميثاق العهد الذي تعهّدت به."

وهنا يتوهج غضب عربي كالبركان، يمسكها من معصمها ويملأ المسافة بينهما بصدى صرخته:

"لا تتجرئي على تجاوز حدودك معي غرام. فلديّ القوة لأطيح بكِ بلمحة بصر. احذري كيف تُخاطبينني!"

وفي تحدي كالصدام، تُجيبه غرام بنبرة الاستخفاف:

"أوه، وماذا بوسعك أن تفعل؟ لا أنت ولا أية قوة في هذا الكون تستطيع أن تُرهبني."

وفي تلك اللحظة يلمس عربي بركان غضب غرام المكبوت وهي تشبه إلى حد كبير الوردة البرية التي لا تُقهر. يقف مُطالعاً إياها بلهفة، ويختار الصمت كساحة لميدانه، قلبه يحوله إلى أسير لإعجابه. يقترب منها بحذر مشدوداً إلى النيران التي تتوهج في عينيها، حتى إن أنفاسهما تكاد تختلط، وأوجههم متقابلة في مساحة قريبة.

تدخل مليكة فجأة إلى المشهد، يقتحم الذهول ملامحها وكأن سكرة الشك قد وطأت أرض عقلها. للحظة يبدو الزمن معلقاً ووقوفهما المُفاجئ يبعث في نفس مليكة خليطاً من الشك والتوجس. بينما ترجع غرام خطوة إلى الوراء، موسعة الفجوة التي زرعتها مليكة بقدومها، يُغلف الصمت الأرجاء وتستتر العاطفة وراء جدار الظنون.

الفصل العاشر

مرّ يومان غلّفهما الحزن، حيث تساقطت الدموع من عيون مليكة، واستولى الأسى على قلبها. تلك اللحظة التي شهدت فيه عربي على ما يبدو ينقض وعده، فبدت لها الأمور كأنه يعطي مودة لأخرى، يغمرها بعاطفة لم تخصص لها هي، مما أثار في نفسها شكوكاً حول صدق مشاعره.

حينها كانت واقفة بثبات ولكن غصت في تأمل الموقف وهي صامتة، بينما كان عربي يتناول شعره بتوتر، وكأنه يحاول ترتيب أفكاره. على عتبة زمن جديد، برقت الدموع في عينيها للحظة قبل أن تغادر، تاركة أثراً من اللوعة والأسئلة لتحملها.

عربي لم ييأس، فطوفان الرسائل والدعوات نُقش على شاشة هاتفها. وعلى الرغم من ألمها استمعت لمكالماته، حيث حاول بـ همة أن يوضح لها الأمور، يفسر الموقف بحجج لا تصل إلى يقين، تجاهلتها مليكة متمسكة بقرارها بعدم الحديث. برفضها لزيارته عبّرت عن مدى إحباطها، وفي صمتها وجدت عربي يتفحص مشاعره ويقيّم حقيقة عاطفتها بالنسبة له.

في أحضان منزل أنس، حيث الوحدة تتخذ مجلسها، جلست ياسمين مسجونة في زنزانة أحزانها. لا يسكن محياها سوى ظلال الكآبة ترسم خطوطها العميقة. ذاكرتها تستعرض شريط المشاجرة العنيفة التي نشبت بينها وبين زوجها، اتهمها واتهمته، الكلام الملتهب يتطاير كشرر، حيث تصادم الانتماء الدموي مع الود القديم في حجرة واحدة. نور في قلب المعمعة وغضب أنس يلقي عليها بظلال الوصمة والتهمة. تعبيراتها لم تتوانى في الدفاع المستميت لشرف شقيقتها، بركان العتاب يتفجر من الحلق، ولكن في النهاية أنس يتنازل عن الساحة ويعلن انسحابه الصاخب.

الصمت يعمّ المكان، ولكن سرعان ما يتلقفها لهيب جديد، طلاق غرام يشعل النار في الواقع المنهار. الجفاء بين ياسمين وأنس يزداد جلياً، تلاقيهما يندر وحديثهما يصبح كظل الغيم هناك ولكن لا يلمس الأرض.

من دواخل دوامة أفكارها، يأتيها صدى اتصال يفيقها، صوت سيرين يتخلل الهواء بنبرة قلقة:

"ربما عودتنا قريبة. كنان يكاد يغلي بغضبه، وأنا عاجزة أمام عزمه."

تتنفس ياسمين عميقاً ويأتي ردها مشبعاً بالسخرية وقدر غير يسير من اليأس:

"الآن نبدأ سيرين، الآن تبدأ البلوى الحقيقية. ما مررنا به لن يكون إلا حكاية قبل النوم أمام الذي ينتظرنا."

أنفاسهما المتعبة تتصاعد، مختلطة بضباب الخوف الذي وجد طريقه إلى صدريهما، يتسع ويتربع مستولياً على الرئتين.

بين أحضان الظلام، حيث يتوسد الوحشة، انطوى عربي في زاوية فراشه البارد. يُكابد في ليلته الطويلة، وهو يعيش ثانية تلك الذكريات حين اقترب من غرام حتى بدا كل شيء حوله يتجمد في مكانه، الزمن يقف صامداً وهو يلمح نظراتها المحتارة.

في طيات صدره، يتقلب بين أمواج القلق، ذاكرته تستدعي مشهد تلك اللحظة، الآثار المترتبة عليها ترن في أذنيه كأصداء تخشى إثارة عواصف في صفو عائلته. يخاف على رابطة الأخوة التي قد تنهار تحت وطأة الصراعات واللوم.

يعترف لنفسه بالخيانة الخفية - خواطر لا يُعلن عنها – يتمنى لو أن شهاب لم يحضر في هذه المعادلة. لكن دم الأخوة يظل زمام الموقف، يتسيّد على حيرته وتمنياته.

صورة غرام تسكن فكره، باعثة في نبضه غواية الشعور بالحياة. همسات طيفها تتسلل إلى روحه المتعبة، وهو يكتشف بأن القرب منها خلق معنى جديد لوجوده.

لكن الحيرة على الجانب الآخر تلتهم إيقاعه، هو محاصر بين نزعة عدم الرغبة في الاقتراب من غرام لكيلا يستسلم لإغراءات مشاعره الذاتية، وبين هذا وذاك تقف الالتزامات العائلية كجدار صلب، وصمت مليكة كسيف مسلط على رقبته. يأتمر بأفكاره على حواف التوتر ويحار في البحث عن مخرج من هذا الإعصار الداخلي.

تدخل والدته، (سلوى) بوقار الأمهات وهي تحاول اجتثاثه من أعماق اليأس:

"هيا يا قلب أمك، انهض لكي تأكل."

يرسم ابتسامة خفيفة لها، يكابر على ألمه:

"لا شهية لدي يا أمي."

قلقها يظهر جلياً على محياها، تسأل بحنو:

"ما بك يا صغيري؟"

يفاجأ عربي بتلك الكلمة فتثير فيه ضحكاً قوياً:

"صغيري؟ لو سمحتِ يا أمي، قريباً سأتجاوز الثالثة والثلاثين وما زلت تنظرين إلي كطفل!"

ترد هي بضحكة خفيفة، تدنو وتمسد يده بمحبة الأم التي لا تفتر:

"حتى لو أصبحت في السبعين من عمرك، ستبقون صغاري، أنت وسيرين وشهاب."

وبينما تلفظ اسم شهاب يستشعر عربي الثقل في قلبها، ثم تعود وتدعوه بإلحاح أمومي:

"هيا هيا، انهض كي تتناول الغداء معنا، والدك ينتظر."

يمنحها عربي إيماءة خفيفة وفي الحال تتركه ، الصمت يحتل المكان، ولكن لا صمت في داخله، إذ تصر أفكاره الجامحة على إثارة العواصف. يلتقط هاتفه مدفوعاً برغبة مبهمة، ويطلب رقم غرام بيدين تعانقهما التردد. رغم ضباب الغموض حول ما يمكن أن يقال، كان في قرارة نفسه يعتقد بأن صوتها سيحرر الكلمات الهائمة في داخله.

تجيبه غرام ببرود قاطع:

"ماذا تريد؟"

يبتسم متأملاً نبرة صوتها الممزوجة بالتحدي والحزم:

"لا شيء، فقط أردت أن أعتذر عما حدث في ذلك اليوم."

يخترق صوت غرام جدران الهاتف بغضبٍ شديد:

"اسمعني جيداً عربي، أنت وشقيقك تحولتما إلى ألد أعدائي، ورغم بغضي العميق لشهاب، أنا ما زلت عازمة على الرجوع إليه، وذلك كي أنجو من غضب كنان الذي يهدد سلامي كل يوم، وما أن أنتهي من ترتيباتي هذه، سأحاسبك وسأجعلك تندم على أفعالك. ذلك الاعتذار ادخره لخطيبتك التي قد تكون قنبلة لظنونها الخاطئة وشكها بنا، اللعنة عليك وعلى الجميع!"

ما من أحد يجرؤ على مخاطبة عربي بهذا الأسلوب الصارم، غير أنه يسلم لغرام بحق الغضب الذي أظهرته. على نحو ما، يكمن في عصيانها نوع من الجاذبية التي تشده إليها أكثر. في تمردها تلك القوة الخفية التي تروض جبروته؛ هي فقط التي تستطيع أن تتحكم في مجريات مشاعره. الزجر الذي وجهته له شد اهتمامه على نحو أكبر، كأنما ضربة تتويج لا علامة غضب، ترسم حدود عزتها التي لا تتهاون في صونها، وهذه الصفة تزيده إعجاباً بها.

لم تكن تهمة الغدر التي نُسبت إليه في نظرها إلا جدلاً لا أساس له، وبتعقّل ورويّة يناول الأمور، محتفظاً برباطة جأشه بعيداً عن انفعاله المعتاد.

وبعد أن تنهي غرام مكالمتهما بقسوة، يتأمل الشاشة، حيث يرسل ابتسامة ساخرة على شفتيه، وهو يهز رأسه بأسى وتسلية، وتظل غرام ترقص في مخيلته، مالكة كل الأفكار والأحاسيس الهاربة من قبضته.

الفصل الحادي عشر

بينما الأيام تتسلل بثقلها، وخطاها تلاحق ما خلّفته المواقف المتشابكة، كان عربي يعمل بهمّة على نسج خيوط جديدة. يقترح عقد اجتماعٍ عائلي يجمع بين أهل غرام وأهله؛ لتمتين الصِلة القلبية بين شهاب وغرام مرة أخرى، وتذويب جليد القطيعة اللذين احتل مكان الود.

رغم ممانعة أنس الظاهرية، إلا أن إلحاح الوالدين قد جعل البيت محور اللقاء، ملتمسين سكون الأجواء.

كانت غرام تحتل مقعد البرود والهدوء، ولم يكن شهاب يملأ الأرجاء بحضوره، وغياب ياسمين ونور يضفي طابع الاكتمال الناقص.

(عادل) والد عربي يوجه حديثه إلى غرام:

"لما لا تنضمين لنا في الحديث ياغرام؟"

تلوح ابتسامة غرام الباهتة، وتجيب:

"أنا مستمعة جيدة يا عمي."

تثير جملتها ضحكة تتوالد بين الحضور، ومن بينهم عربي وغرام، اللذان تتقاطع نظراتهما في لذة الاستكشاف والعبث. نظرات عربي تخفي بهجته وراء الحشود، بينما غرام ترمقه بنظرات تقطر لؤماً؛ نزال أبصار يصطدم فيه العداء بالعاطفة.

بمكر مطرز بابتسامة مستفزة، توجه غرام سهامها نحو عربي:

"لماذا لم تأتي مليكة معك يا عربي؟"

عربي والثبات يعتري محياه، يُلقي نظرة جدية ثم يصمت لبرهة قبل أن يجيب:

"اعتذرت عن الحضور، لديها ارتباط بمعرض."

تلتقط غرام الكلام بملامح مغرقة بدهاء وتقول:

"أخشى أن تكون ما زالت حزينة بسبب ما حدث في الشركة."

وإذ بعربي تباغته نظرات التساؤل من الجميع، وعادل يسأل:

"ما الذي حدث في الشركة؟"

يهيمن الصمت على عربي للحظات، وهو يتبادل مع غرام نظرات تحمل قصة كامنة، فتنطق غرام:

"لقد وقعت مشادة صغيرة بينهما بسبب مساعدة عربي. مراراً طلبت منه نقلها، لكنه لم يكثرت. عندما حضرت ورأتها، فُجرت الخلاف."

ومن حيث لا يُتوقع، يسأل أنس:

"وما الذي يجعلك على علم بهذه التفاصيل؟"

تصوب غرام نظراتها الثابتة قائلة:

"مليكة هي من أخبرتني بما وقع، لا تبقي عني شاردة وواردة من تعاملاتها مع عربي."

يتحدث عادل بنصح وقور:

"إن كانت تُشكل لك عبئاً مع خطيبتك، فبوسعك نقلها لموقع آخر. لا يجب أن تتطاير الشرر بينكما أبداً يا بني."

عربي رغم برودة تسري في ملامحه، يرمق غرام بنظرة مستهزئة ويقول بسخرية:

"يبدو أن غرام تلقت دورات تدريبية في الإرشاد النفسي لتصبح صندوق الأسرار الذي تصب فيه مليكة همومها."

غرام لا تفوت الفرصة للتغنج بثقة وهي تضحك قائلة:

"يزحف الناس من أطراف الأرض لأسمع مشاكلهم وأحلل عقد تفاصيلها."

لا يترك عربي الكلمة تمر فيرد بثقة موازية لكبريائه:

"أفضل لك أن تستثمري هذه الموهبة في حل مشكلاتك الشخصية أولاً."

غرام وقد كبتت براكين غضبها، تجيب بنبرة توحي بانشراحها:

"ليس لدي مشاكل تُذكر، أنا في عافية تامة."

عربي يعلق على كلماتها بابتسامة جافة، تُنبئ عن التهكم العميق، بينما تدور الجلسة بنفاذ صبر الجميع، فقد ألفوا المناوشات الخفية بينهما كالقط والفأر في المواجهات السابقة. ورغم السيمفونية الضخمة للمشاعر التي تتلاعب

بأطيافهم خلف الستار، يظل عربي عامراً باللامبالاة التي يرسمها على واجهته، وبارد الإحساس الذي لا يظهر إلا لمن يعرف نوازع قلبه الحقيقية.

حين دخل شهاب على بيت أهل غرام، حاملاً ابتسامة لغزية تخفي خلفها العديد من الأسرار. الدهشة ارتسمت على محيا الجميع حين وصل، لا لوحده بل مقترناً بنور التي تتسم بالتردد والقلق في هيئتها وقد بدا الارتباك يعشش في حركاتها الصامتة.

بنبرة هادئة ولكن مليئة بالمعاني، يستهل شهاب حديثه:

"لم أستطع مقاومة الرغبة في التواجد هنا اليوم"

كان عربي يفور مثل بركان واهم بمغادرة حقيقته، وغرام تتربع خلف واجهتها الثلجية، تخفي بركان مشاعرها الثائر.

فاجأ الجميع شهاب بإعلان جريء لم يسبق لأحد أن يتوقعه:

"أنا ونور أتينا لنأخذ بركة اجتماعكم اليوم، إذ توجت قصتنا بعقد الزواج. في نور وجدت الإخلاص، وقررنا معاً أن نكون عائلة"

الصمت يطغى على الحضور، بعيون تكبر فيها دوائر الصدمة والتساؤل. عربي يكاد يعتصر قلبه، يطلق كلمات تتأجج غضباً وتساؤلاً:

"أنا أسعى لإصلاح ما بينكما وأنت تعزف على وتر الفتنة بهذا الشكل!"

شهاب الذي يغمر وجهه شبه ابتسامة، يتحدث مدافعاً:

"فتنة؟ أيجرم الرجل إن بحث عن السكينة في قلب تستريح إليه نفسه؟ لم أفعل الحرام"

يتدخل أنس في الحديث بغضب:

"إذًا ما تلك الخيانة التي كنت تروج لها؟ أضحى جلياً للعيان أن ضحية القصة هي أختي، وأن الأقوال التي قذفت بها غير صحيحة."

يضحك شهاب قائلاً:

"هل هذا هو تعاملنا مع مشاكلنا؟ تلك الرسائل التي رأيتها بعينيك، هل كانت حقاً مزورة؟"

أنس عينيه تلتهمان الحقيقة، يقول بصوت يهز المكان:

"ومن أين لنا اليقين؟ تبقى تلك الرسائل بلا شهادة رضا، الغائب الحاضر بيننا، كيف لي ألا أنظر إليها كمسرحية هزلية دبرها من يدّعي الشرف اليوم؟"

شهاب يصفق وكأنه يتوج كلمات أنس:

"ممتاز أنس! فلتحملني تهمة الخيانة إذا كانت الظنون تروق لك!"

غرام تتنفس الكلمات بانكسار وحزم:

"دعنا من هذا العبث يا شهاب. لقد انتقيت من هو في مقاس خيانتك. أما أنا فقد نُسجت خيوط النهاية بيننا، ولا يصح إلا الصحيح وهذه خاتمتنا."

شهاب بابتسامة جوفاء:

"أحسنتِ بارتدائكِ ثوب العفة، لعبتي دورك على خير ما يرام."

نور، التي طالما كانت لوحة الهدوء الملونة بطيبة الروح، كانت الآن صورة متجمدة للقلق. رأسها المنحني ليس إلا حملاً يزيد، وظلاً لصدى كلمات لم تُقال. وقد سُجلت على جبينها خطوط الخشية من نظرات الجميع، وخصوصاً تلك التي تروح من عيون أنس وغرام، وقد اخترقتها كسهام من نار.

عربي، وقد كان يعتمر الإصلاح، رغب في جمع ما تفرق. لكنّ مرارة ما توالى جعلته يتكئ على جدار الأسف والحرج. لم يُرِد أبداً أن تتلبد السماء بهذا القدر من الغيم، ولم يظن يوماً أن تُخبئ الأقدار في جعبتها هذه المواقف.

وقفت ياسمين بينما الظنون تحيط بها، وأطياف السوء تناغمها. وكانت قد رفضت دعوة الحضور فلم يعد في الحضور معنى سوى مجمع لكلمات لوم وعقاب.

"إذاً، هذا هو السبب وراء تحججك بالغياب؟ لأنك تريدين الهروب من نظرات الاتهام لما أقدمت عليه شقيقتك الخائنة، أليس كذلك؟" لامها أنس بنبرة لا تخلو من التأنيب.

صمت ياسمين ضاق بالذهول، وردت باهتزاز في الصوت:

"كيف تتحدث هكذا يا أنس؟ وتتفوه بتلك الكلمات عن نور؟ أقسم بأنني لم أكن على علم بما جرى، لقد علمت بالأمر اليوم صدقني!"

"هل يُعقل أن أصدقك الآن؟!" صاح بها أنس والغضب يتوهج في عينيه:

"كيف لك ألا تدري بزفاف أختك؟ ووالدتك... أتخبريني بأنها لم تكن تعلم بالأمر أيضاً؟"

تتالت الأسئلة وكل واحدة أشدّ إحراجاً من الأخرى. تتحدث ياسمين بينما الأعذار تتهاوى من شفتيها:

"كلا... حتى أمي لم تكن تعلم، فقد علمت عندما أفشت نور الأمر لنا جميعاً. والدتي ما كانت لترضى، لكنها باركت الزيجة في النهاية."

تجلت الحدة في صوته:

"وأية أم تلك التي تبارك بمثل هذه العلاقة؟"

ابتلعت ياسمين غصة الألم وهتفت بإعياء الذكريات:

"لا تغفل عن كابوس حياتنا في كنف زوج الأم. لم يكن لنا في مأوانا إلا ذلك الشعور بالتحتية والتقصير المستمر."

أنس وقد أعماه الغضب، هاجم بالكلام:

"أتبررين لنور خيانتها؟ أن تنتهك عهد الصداقة وتغتال أمانة غرام، لمجرد أن تتحرر من ظلم زوج الأم؟"

ياسمين تبتلع دمعة هاربة وتُخيّم الصمت ليردف أنس:

"لطالما رحبتُ بنور في بيتنا. كم مرة فتحت لها قلبي وبيتي، لكن هذا جزائي، الخيانة؟"

وبلهجة مفعمة بالتحدي، قالت ياسمين:

"تتهم نور وتبرئ غرام، من قال إن غرام بريئة من الغدر؟ لن أسمح بتعديك على عائلتي هكذا!"

الكبرياء ينكسر تحت وطأة الصفعة التي وجهها أنس وهي تنظر إليه بذهول التي تستقبل آلام اليوم والأمس، تقاوم لتطلق كلماتها بأنهار الألم:

"تلك الصفعة كان يجدر بك أنت استلامها، فأخوك كنان رغم عصفه وهوجه، لكنه أكثر فطنة منك. اذهب وعلّم شقيقتك التربية، تلك التي خانت الأمانة!"

وكانت هذه لحظة الانصهار، حيث انقضى عهد التفاهم بينهما، وتزاحمت الأزمات كسلسلةٍ من الأعاصير تحط على قلبهما التوّاق. جرح نازف يتسع بكلمة تحكم قصتهما، وبربرة جليدية تتجمد، ينفث أنس الكلمات القاطعة، كأنها نسمة شتائية قارصة تعزف على أوتار الوداع: "أنتِ طالق."

بلا إضافة نثر، يسدل الستار خلفه ويخرج من باب المنزل، كما لو أن الكلمات قد استنزفت قاموس حياته. يترك وراءه ياسمين، غارقة في بحر الصدمة الذي يختلط بأشواك الألم، وصمت موحش يملأ المكان. صدى بكاء الطفل يتردد في أرجاء الفضاء البارد، وكأنه يملك الحس ليترجم المأساة الدائرة للحظة.

الفصل الثاني عشر

مرت الأشهر الثلاث كسحابة صيف عابرة، أعادت تشكيل مصائر أبطالنا بصورة جديدة.

ياسمين، تجد الآن مأوىً في منزل الوالدة، حاملة معها كسرة خاطر لا يلمها الزمان. وفي الطرف المقابل، نور، التي رفرف قلبها يوماً فرحاً برؤية شهاب، ها هي الآن تتشارك معه سقف الزواج، ولكن بقلب مهجور من شقيقتها ياسمين التي ارتأت الصمت جواباً والقطيعة موقفاً. بينما غرام، صاحبة القلب الذي تأرجح بين الإقناع بالبراءة والأسر بحبال الخطيئة.

ضاقت الأجواء ولوّحت للحياة بالصمت، اكتست أيامهم بالرمادية الباهتة، بلا جدوى الألوان. شهاب، الذي توّج نفسه بحب نور، إنما كان يعبث في خشونة مكره، يزرع للخيانة نكهتها في روح غرام. تستقي غرام من تلك النكهة علماً وحسرة، تُكابر باحتفاظها بجلد الضحية، وتُقنع الجميع بذلك إلا كنان، الأخ الفطن الذي لم يغمض لها طرف ببراءة.

ونور، أضناها الأمل يوماً، تجد اليوم حلمها العريض في حب شهاب، فارس أحلامها المتدثر بالفتور، بزواج أقل ما يُقال عنه أنه تقليدي، غير أن قلبها يعتبره إنجازاً. فكيف لها ألا تفعل، وهي من غزلت التمنيات وهي تتقاسم الدرب مع غرام الى المدرسة في أيام الصبا الاولى، تهيم حباً بذلك الطيف الذي غالباً ما كان يحطّ رحاله قرب أسوار المدرسة، لكن حقيقة اهتمامه بـ غرام كانت تسدل ستار الألم على فرحتها البريئة.

شغف نور وطموحها تكسّرا في خضمّ تلك العاصفة العاتية حينما تبيّنت روحها أن شهاب يعشق غرام. وإذ بها في كبد الجامعة تهب نور رياح الأمل مجدداً حينما ابتعد شهاب عن محيط غرام، منغمراً في دوامة العمل، فظنت نور المنكسرة وقتئذ أنه أسقط غرام من جدول اهتماماته. لكن موجة الصدمة الثانية تعلو بها حينما زُفّت أخبار خطبة شهاب لغرام ثم زفافهما. فانمحت أمانيها تحت ثقل الوقت، حتى حل اليوم الذي سرقت فيه خيانة غرام للأضواء وأسفرت عن زواج نور وشهاب.

بكل هذه التقلبات، استقبلت نور واقعها الجديد، قبلت بالمحبة المنقوصة من شهاب دون تذمّر ولو أنها كانت تعي أن زواجهم لم يكن ليقع لولا اللعبة البارعة التي مهّدت غرام لها باهتمامات خاصة.

يقبع أنس في صمت بيته، يحتضن الوحدة كأنيس في غياهب الظلمات. تتساقط عليه وابل من عتاب الوالدين وكنان؛ كلهم يجمعون على براءة ياسمين من ذنب جريرة نور، حتى غرام تحشد جيوش الكلمات محاولةً رأب الصدع بينه وبين ياسمين، ولكنه، كنبتة في الصقيع، اختار أن يتجمد خلف جدار صمته، يكابد ألماً لا يُقال وقهراً لا يُستطب.

لياسمين من أنس كل التقدير، ولإحساسه بالخسارة أعماق كثيرة. عمقه يكبر كلما تذكر خروجها من باب المنزل دون عودة، حاملةً ثمرة حبهما غيث. وفي كل مرة يقصد بيت والدة ياسمين لرؤية طفله، يتجدد الألم، يعضّ على نفسه بمرارة لأنه لا يجد ياسمين، تلك التي مزق قلبها بيده القاسية.

تفر إليه زفرات الأسى عندما يبصر حاله المنكسر، يعلم أنه ولو اشتعلت فيه رغبة الرجوع بياسمين، فإن ذلك سيصطدم بصخرة كبريائها وكرامتها المنيعة. يدرك أن الطريق لاسترجاع قلبها المكلوم يشبه محاولة إعادة ضوء النهار إلى عتمة الليل المحتومة.

ومن نافلة العتاب، تنأى عربي بنفسه عن شهاب، ذلك الأخ الذي أشعل فتيل الفوضى، ليكتفي بمعاملته كغريب، بلُغة البرودة الرسمية والنأي الاجتماعي. وشهاب الذي يُدرك حجم الجفاء، يمشي في طريقه معتقداً بأن ما فعل كان الصواب، ولو خال الجميع غير ذلك.

فيما تبقى مليكة، النفس الحالمة بليلة العمر الموعودة، تطوق عربي بالأسئلة حول موعد الزفاف. وهو في كل مرة ينسج الحُجج، يُدثر الوعود بغطاء الظروف الصعبة التي تلف العائلة. تقاسي بصمتِ صبرها، تنجو بقلبها رغم ألسنة الانتظار التي تلسعها، وتحتمل تجارب الزمن الراكد بروحٍ لا تعرف اليأس، متمسكةً بكرامة الظروف، مؤمنة بأن كل تأخيرة ستجلب معها خيراً لا محالة.

في قلب اليوم الروتيني، تعود ذكريات خافتة تتخلل صمت البيت، حيث ما زالت ياسمين تلوح في الأفق، وبكاء طفلها يخرق الصمت. ينفث (أحمد) زوج والدة ياسمين زفيراً حاداً، يكاد يقطع الهواء الراكد ويقذف بكلامه إلى ملك كسهم غاضب:

"أما آن لهذا الطفل أن يكف عن البكاء؟"

(ملك) والدة ياسمين وقد امتلأ قلبها عتاباً محبباً:

"ما بالك يا أحمد؟ هذه ابنتي، وحتماً سأكون دعماً لها في هذه الشدة، محنة الطلاق لم تكن هينة."

يرد أحمد بلهجة تسخر من الألم:

"لطالما انتهينا من نور وجنونها المتلاطم، ها هي ياسمين تجئ بصغيرها الباكي."

تأوهت ملك وكأن آهتها تتكسر بين ثنايا الصمت وتختفي، بينما ياسمين، التي تتقد فيها نار الغضب، وقد اعترضت سمعها هذه العبارات المتقدة، تنفجر قائلة بحدة:

"دعني أوضح لك يا سيدي، هذا المنزل هو منزل أمي، إن شعرت بالانزعاج سواء من أجواء نور أو من بكاء ابني، فالأفضل لك أن تجد مكاناً بديلاً لك!"

ينظر أحمد لياسمين بعينه التي تتراقص فيها الاستهزاء، قائلاً ببرود:

"ليس فقط ضيفة ثقيلة علينا وصاحبة طفل لا يهدأ بكاءه، بل وكذلك تسترقين السمع على أحاديثنا خلسة!"

ترد ياسمين بقوة:

"أنا لست ضيفة، إنما هذا هو بيت والدتي. أنت من يحل ضيفاً هنا!"

يأتي زفير أحمد مثقلاً بنفاد الصبر:

"ومن منا كان كوالد لكِ ولأختكِ منذ الصغر، من رباكما وأنفق على تعليمكما، أولستُ أنا يا ياسمين؟"

لكن ياسمين، التي تعلو شفتيها ابتسامة مريرة وهي تتذكر مرارة تلك الأيام بين جدران هذا البيت، تعقب بلهجة باردة:

"لم تكن أبداً تنفق علينا، إنني على دراية تامة بمجريات هذا البيت، فكل المصروفات التي أُنفِقتْ علينا وأختي منذ وفاة أبي وحتى استقلالنا كانت من عطاء خالي (كريم)، وأنت لم تكن لتحل محل والدنا أو تصل لرقته وحنانه. فلتتوقف عن اللوم والعتب بخصوص وجودي هنا، أنا المقيمة هنا حتى أرتضي، وإذا كان الوضع لا يرضيك فابحث لك عن مئوى آخر حتى يأتي الفرج."

تدير ياسمين ظهرها إلى الغرفة، وتُغلق الباب بقوة وهي تسمّر كلماتها خلفها كسهام، تاركةً أحمد ضائعاً في زفيره الحاد وملك تراقبه بعينيها الممتلئة توتراً وقلقاً.

أمام عتبة البيت يقف كنان وسيرين وتلك البرعمة النضرة ريم، كلوحة تتحدث بصمت عن الحب. يتراءى للوالدين وجوههم وكأنها تجسيد لأحلام زمان قد تكثفت وحلت ملموسة أمامهم. الاستقبال ليس بالأحضان وحسب، إنما بنظرات العيون التي تترجم مشاعر الوصال التي لا يمكن للألسن أن تعبر عنها.

شغف الجد والجدة لسماع كلمات الصغيرة لا يوصف، كأن كل كلمة منها تُعد كمرجانة من غمار اليم. وكل نظرة من ريم إليهما هي بلسم لقلبين انتظرا رؤية أحفادهما يكبرون أمام أعينهم. يخفق القلب للحظة اللقاء وتدور عجلة الزمن بخفة، لتشهد على إعادة نسج الروابط التي عزفت عنها سنون الغربة.

عقب لحظات اللقاء الموشحة بزغردة الفرح، تخترق برودة سؤال كنان الهدوء المتوهج:

"أين غرام؟"

ترنو النفوس قلقة، فيكتسح الصمت الجميع، يكسر إبراهيم حاجز القلق بصوت يحمل نبرة الطمأنينة:

"في العمل، اقترب موعد عودتها."

كنان، الذي لم تفلح الشهور في إذابة جليده، يهز رأسه متجلداً وبجمود يقول:

"لو سمحت يا أبي، اتصل بأنس وياسمين كي يحضران."

تنبعث الدهشة من عيون إبراهيم وهو يصوغ استفساره في محاولة لفهم الرؤية التي ينشدها كنان:

"إن كنت تأمل في تجديد الروابط بين الاثنين فقد تُخيّب. فمحاولاتنا باءت بالفشل، وأنس لم يبدِ رغبة في استعادة ياسمين، بينما هي رسمت الخط الفاصل بأمر العلاقة."

كنان يومئ باطمئنان:

"لا بأس، فقط اطلبها، ستأتي عندما تعلم أننا عدنا، رغم كل ما حدث."

يستجيب إبراهيم للأمر بتنهيدة تحمل وزن الظنون، إذ تحاول وفاء تذويب الرتابة بحديث محبب:

"ستفرح غرام كثيراً عندما تراكم يا بني."

وفي مقام يخلو من الحرارة الأسرية، يستقبل كنان كلماتها بابتسامة تجتاحها مشاعر جليدية: "الفرحة متبادلة وكذلك الحق في المحاسبة."

التوتر يتسلل إلى أرواح الحاضرين، كظل يخيم على وجوههم. بين هذا، يفعل إبراهيم ما بوسعه، يحيك الأمل بتلك الاتصالات التي من شأنها أن تحشد أنس وياسمين للقاء مرتقب.

أنس، الذي يتلقى البشارة، يشع بفرح عارم واشتياق لملتقى أخيه. تتدخل وفاء ملتمسة فرصة الكلام لتأخذ السماعة وتنزوي بعيداً عن الأنظار، لتصوغ بلهجة خفيضة واهتمام أمومي:

"بني اسمع، أمهل غرام في عودتها إلى البيت. أشعر أن كنان يكتم في نفسه أمراً، وأنت أسرع إلى هنا لتخفيف التوتر."

أنس بوعي يرثه عن فطنتها يجيب بتفهم:

"فهمت، يا أمي"

بعد اختتام المحادثة بكلمات غامضة، تعود نجوى إلى الحضور، فتلتقي بتساؤلات كنان الذي يبدو له كأنه خبراء الباطن:

"سأقابل غرام مهما تأخرت في مجيئها يا أمي"

تقابله هي بابتسامة وتزهد الحديث:

"سأعدّ الغداء، فأنا أعرف كم تشتاق لأطباقي الدافئة. وسوف تؤنسني هذه الصغيرة، تعالي يا ريم!"

تقترب ريم وتظفر بيد جدتها ببراءة، فترحلان خارجاً من مرمى الكلمات. يسأل ابراهيم سيرين:

"ألم تلتقين بأهلك ياسيرين؟"

سيرين ببشاشة قائلة:

"لا، لم نلتق بهم بعد"

إبراهيم يجدّد الترحاب:

"سنوجه دعوة الغداء إلى أهلك لنجمع شمل الأحبة جميعاً."

ويشرق القبول في كلمات سيرين:

"أظن ذلك رائعاً"

ثم يندس كنان بحرص في مجرى الحوار:

"لو سمحت أبي، ألزمني أولاً ياسمين وأنس، وبعدها نرحب بأهل سيرين."

يلوّح إبراهيم بالقبول ووراءهم ساد الصمت الوقور.

الفصل الثالث عشر

وسط زحام الأوراق وهمسات الأقلام، أيقظ رنين الهاتف غرام من غمرة التزامها؛ وبنبرة تغلبها آثار الإعياء، ردت قائلة:

"أهلاً أخي."

وبصوت يحتوي إيقاعاً من الأخبار المُفاجِئة أخبرها أنس:

"كنان قد عاد والآن هو في منزل أهلك."

تلقت الخبر وإذ بها تتذوق القلق، تبتلع ريقها بثقل:

"كنان؟"

أنس مؤكداً وبلهجة يسودها الاحتياط:

"نعم. وهو ينتظر حضورك. ونصحتك والدتك أن تتأني في العودة إلى أن ألقاه وتستقر الأمور."

ردت غرام في حذر والتوتر يكسو كلماتها:

"حسناً، حسناً... سأطيل وقتي في العمل. اتصل بي لاحقاً وأطلعني على المستجدات."

يغلق المكالمة، بينما ظلت غرام ثابتة في مكانها، متجمدة الفكر، غارقة في بحر التأملات. كانت هي التي ألفت دلال كنان وحمايته؛ نعم، لكنها تدرك علم اليقين أنه عند الزلة يتحول إلى رجل آخر، يكشر عن أنياب الغضب في حين تصبح عواقبها غير مألوفة.

فهي تعلم أن اللحظة التي تجمعها بكنان لا مفر منها، وكل دقة قلب تشي بما سيُكشف عنه المستور، بعد دقائق أو ساعات.

كان الجمع العائلي في تلك الليلة يشع بدفء مشاعر تبث الروح في أركان المكان. أنس وكنان، اللذان يتشاركان أكثر من صلة الأخوة، صلة الروح ومودة الطريق، اتحدا في لمة اخوية فاجأت القلوب قبل الأعين. تغمر المجلس نسمات الألفة والمحبة، وبحضور ياسمين كانت الأفراح تزداد توهجاً، تلك الأفراح التي أشرقت على وجوه الجميع.

ولكن ياسمين،التي أقبلت متحمسة لمشاركة الأحبة هذا التجمع، وبخاصة لرؤية سيرين الغالية على قلبها، اكتست ملامحها بنوع من الضجر لمجرد رؤية أنس. تغير وجهها إلى لون الشحوب وجلستها فقدت الراحة، لكنها تزينت بالصبر قليلاً من أجل سيرين وكنان ومن أجل لقاء العائلة بالطفل غيث.

أما أنس فقلبه انشرح بمجرد أن استقرت عيناه على ياسمين. رغم تغير هيئتها وظهور علائم النحول عليها، شعر بنغصة في قلبه، سكاكين الأسى أصابت صدره ولم يجرؤ يوماً على مفاتحتها.

كنان بنبرة هادئة موجهاً حديثه لياسمين:

"غيث الصغير أخذ من جمالك الآسر، وأخذ من شغب أنس."

ابتسمت ياسمين رغم الظلال التي سكنت عيناها مجيبة:

"أما ابنتُك فقد نسجت من أخلاقك وشخصيتك، ولكن لوجهها بريق يعكس جمال أمها."

فاستطالت ابتسامتا سيرين وكنان. وكان الوقت يمضي بهدوء، لكن ياسمين قد شعرت بأن الساعات تتسارع حولها. وبينما الضحكات ملأت الفضاء، نهضت بأمومة لا متناهية تحمل طفلها الصغير وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة خفيفة قائلة:

"اعذروني، علي أن أنصرف، سعدت للغاية بلقائكم، آمل أن تزوروني قريباً."

كان ذلك كافياً ليهز أنس من الداخل، فكاد قلبه أن يشق طريقه إلى الحرية من بين ضلوعه. وقد تسمر للحظات، قبل أن ينهض كنان ليقف أمامها:

"ابقي قليلاً، أريد التحدث معك"

ردت ياسمين والابتسامة لا تزال تحتل مكانها:

"يجب أن أعود قبل أن يتأخر الوقت."

كنان:

"لا داعي للقلق، لن تعودي لوحدك."

ثم التفت إلى أنس مخاطباً إياه بنية واضحة وأضاف:

"وأنت أيضاً، أود أن أتحدث معك"

أطلقت ياسمين تنهيدة باردة ترتعش معها الأوصال تحت وطأة الشوق المكبوت:

"أرجوك يا كنان، إذا كنت تعتزم الصلح فهو طريق لن يأتي بنتيجة، فقلبي قد طوى هذا الفصل."

أجابها كنان ببرود:

"ضعي طفلك في حضن جدته والحقي بي أنتِ وزوجك."

اتسم وجه أنس بابتسامة هادئة تحمل طيف نصر، فيما كانت عيون ياسمين ترسله إلى ميادين الغضب المكتوم، ومع ذلك باعتراضها الصامت، تلاحق خطواتهما وكأن القدر يخط لها مساراً مجهولاً.

أحاط الصمت الغرفة كزنزانة هادئة، بينما شحنات التوتر تتأرجح في الهواء. اقتربت أجواء السكون من كل ركن وزاوية، وكانت ياسمين تتخذ من ملامح الانزعاج قناعاً لوجهها، غارقة في بحر الأسئلة غير المجابة، فيما كان أنس يغط في برود، وكأن العاطفة قد هُجرت لديه، وكنان يراقبهما كصمت القاع بعد رحيل العاصفة.

أخيراً أطلقت ياسمين الوتر المتوتر بكلماتها:

"أليس هناك من كلمة تود قولها؟"

وانطلاقاً من صمته، رد كنان بصوت يحمل وقار الليالي الطويلة:

"أخبراني بما حدث، لمَ أدى الطريق إلى الافتراق؟"

كمن أفاق من سباته عبّر أنس إلى الحديث:

"لماذا لا تسألها؟ فهي لديها ما تقوله بخصوص الأمور."

تفجرت ياسمين ولهيب الغضب يكتنف صوتها:

"كيف لي أن أفيض بالكلام وشقيقتي دائماً تحت ميزان حكمك؟ أيُعقل أن تنتظر مني الحكمة وأنت بالأمس لا ترضى بما قيل عن أختك؟"

جاهر أنس برده، تردد فيه صدى صلابته:

"ألم تبتعدي عن نور منذ أن تزوجت شهاب؟ حتى أنت اتخذتي موقفاً منها. أليس ذلك دليلاً واضحاً على صحة وجهة نظري؟"

وقود التأثر يتوهج بطياته عناد وإصرار، فتقول ياسمين:

"حريتي لا تمسها يدك، ليست لك سلطة على علاقتي بشقيقتي. أما ما يتعلق بعائلتي فلم أُبرزك فيها قط."

لم يتمالك أنس حنقه فتهكم:

"عائلتك ليست إرثك وحدك، فما زالت حكايات نور وهي تعيش في تعاسة مع زوج أمها تتردد في أذنيّ. وأراها كأختي تماماً رغم كل ما حدث. لكن ما لا يُغتفر هو ذاك الجرح الذي سببتِه بكلماتك عن غرام، حتى لو كانت صحيحة لم يكن يجدر بك البوح بها."

توارت ياسمين عن النظر واختارت الصمت. فاسترسلت فجأة بغضب يشي بذكرى موجعة:

"هل نسيت أنك صفعتني في ذلك اليوم"

يتسع بؤبؤي كنان بدهشة وتساؤل:

"صفعتها، أنس؟ هل فعلت ذلك حقاً؟"

رمت ياسمين باتهاماتها كسهام:

"نعم، لأنني دافعت عن شقيقتي، هو أيضاً لم يبقِ سكوتاً عن جرحي بقوله، تعدى على أمي وتجريحها بزيجة نور وماضي حياتنا مع زوج أمي."

وهبّ أنس لتصحيح المسار:

"لا تشوهي الحقائق، كنت أشير إلى أنها ربما أسرعت في الزواج لتفر من ظلم زوج أمها، لا أكثر"

تطيح ياسمين بسخريتها ثم تعتصم الصمت. بعد صبر كنان الذي بدا كسنين تحدث بلكنة هادئة:

"لا تتحدثا بموضوع غرام بعد الآن، و..."

قاطعته ياسمين بغضب:

"أصلاً، لا وجود لبعد الآن بيننا."

أجابها كنان ببرود تام:

"لا تقاطعيني."

أومأت برأسها وتركته يكمل:

"ابتعدا عن أمور غرام. وفيما يخص حياتك السابقة يا ياسمين أنس لم يقصد الإهانة. بالنسبة لنور، فهي اتبعت نداء قلبها، وأمور الماضي لا تعنينا. فلقد تم الزواج بعد أن انفصلت غرام عن شهاب، ولم تُمس كرامة أختنا، من ناحية الشجار مع أختك نور، فلا يلزمني ولا يلزم أنس التدخل، النصيحة فقط ما نستطيع تقديمه.

كانت ياسمين تحتضن امتناناً خفياً بنظراتها إلى كنان. فمعروف عنه جمر الغضب الذي يقيم بين جنباته، إلا أنه كان يحوز على كفاية الحكمة والتبصر ليبحر بالكلمات في موج العقلانية. سرت رياح الهدوء بصوت ياسمين قائلة:

"أدرك كم من الفتن قد ألقيت بسبب الأحداث الماضية، ويعلم أنس جيداً أنني دوماً أصون حياتنا من تداعيات منزل العائلة. لكن تراكم الآلام يومئذ جعلني أعيش في رماد القهر. لقد جرح لسانه قلبي بقسوة، وإضافة إلى ذلك، دارت ملاسنات حادة بيننا أنا ونور وغرام، نور تلقت صفعة من غرام في وقتها، ومن خلال تلك الزوبعة صفعني أخوك."

بين الدهشة والبلبلة، تفاجأ أنس وكنان بحقائق أُسدل عنها الستار الآن، فقال أنس بتفاجؤ:

"لم أكن أعلم بذلك"

أمام ذلك أحست ياسمين بتفهم ينساب منها صامتاً كجواب، بينما شعر أنس بضيق الأنفاس إذ أيقن حجم تهوره وما زرعه في ياسمين من جرحٍ عميق. ومن ثم أُعلن ختام الجلسة بتنهيدة من كنان تحمل أثقال الحكمة قائلاً:

"ها قُد قُلتُ لكما ما يجدر بكما إتباعه، تحدثا مع بعضكما الآن، وأخرجا ما به صدوركما، ودعوا الكلمات تبلسم الجراح. ولكن أياكما أن تغفلا قلب البراءة التي بينكما، غيث، مَن ليس له في اختلافاتكما يدٍ، فما ذنبه أن يعيش بين القطيعة؟"

فأغلق كنان الحديث بسؤال بقي يرفرف بأجنحته في أرجاء الغرفة، وما كان منه إلا الانسحاب بوداعة تاركاً لهما حرية تنسج آفاقاً للحوار الخاص. وما إن أُغلِق الباب خلف ظهره حتى بدت بين ياسمين وأنس نظرات

خاطفة تتسابق مع الكبرياء، لكنها سرعان ما تذوب أمام شواطئ الندم والمكابدة، تلك النظرات التي استطالت كظلال العتاب.

الفصل الرابع عشر

كانت غرام تجلس خلف مكتبها في شتات من التوتر، تطرق بأناملها على سطحه البارد، فأفكارها تدور في مهرجان من القلق. الغموض يعم حول ما يمكن أن يحدث لدى عودتها إلى منزل تشترك فيه مع كنان، ذلك الشخص الذي يمكن أن يتحول في ثانية من الهدوء إلى عاصفة غضب. لقد كان دائماً بحراً من الغموض مظلم المياه؛ تارة تتوقع منه ردة فعل فيفاجئها بنقيضها، وتارة أخرى تأمل منه الرأفة فيجتاحها بعاصفة عتاب. هذه اللامتوقعية تجعلها تخشاه؛ فهو وحده من يستطيع إثارة مخاوفها.

أما غزل، زميلتها التي تجلس في الزاوية المقابلة، فقد كانت ترصد التوتر الذي يسكن تقاطيع وجه غرام بعيونٍ تتوهج بخبثٍ وتهكمٍ يتراءى على محياها مع كل ابتسامة تستقر على شفتيها. لتقطع الهدوء بصوت كانت تنتوي به قلب موازين الراحة والاضطراب:

"مابكِ يا غرام؟"

فما كان من غرام إلا أن تنفض عنها غبار شرودها لترد بصوت محمل بنبرة جليدية:

"لا شيء، ركزي في عملك"

لكن غزل لم ترغب في التوقف، فواصلت تدق أبواب الإزعاج بقولها:

"ألاحظ عليكِ علامات التوتر الغريبة."

ومع امتعاض ملحوظ، أجابت غرام في تحذير صارم:

"أخبرتكِ لا شيء. لا تحشري أنفك فيما لا يعنيكِ وانشغلي بمهامك."

ومع كل ابتسامة ماكرة تزين وجه غزل، كانت تطلق سهام تحديها بلا توقف، وأردفت غرام بنبرة المديرة التي لا تقبل الجدل:

"يبدو أنك نسيتِ... أنا هنا مديرتك، في موقع لا يجب أن تتطاولي عليه. انتبهي إلى شؤونك، وحافظي على مسافة الاحترام."

نهضت غزل بخطوات هادئة وواثقة والابتسامة الخبيثة لا تفارق وجهها، وفي يدها فنجان قهوتها الذي تناولته من سطح المكتب. اقتربت من مكتب غرام متكئة بهمة لتسأل بخفوت داعبت به هدوء غرام المزيف:

"كيف حال عربي معكِ؟"

نظرت غرام بعمق نحوها لترفع حاجباً في تعجب:

"وأي علاقة تربطك أنتِ بعربي؟"

ظلت غزل صامتة، تترك ابتسامتها تحكي ما تخفيه الكلمات، لتردف غرام بنبرة مشبعة بالتهكم:

"أها، الآن أدركتُ، أتعتبرينه الرفيق المثالي بعد أن كنتِ قائلة بأن قلبك لم يعد للحب موطناً إثر علاقة فاشلة قوبلت بالرفض"

استطاعت غرام إثارة غزل فوثبت الأخيرة نحو الباب تغلقه بصرامة، لتقول غزل بحزم لا يتعارض مع رقتها الواضحة:

"ربما نسيت أن تلك العلاقة التي أفلت شمسها كان بسبب أفعى سامة مميتة أسمها غرام. أم أن ذاكرتكِ خذلتكِ؟"

بثقة مطلقة ويقين لا يتزلزل، ابتسمت غرام بهدوء البحر في لحظات صفائه:

"وما جريرتي إن كانت غزل لا تقدر نفسها حق قدرها، فلم تعمل على ملء فراغ قلبه؟"

ثارت غزل لترد بقوة:

"تأكدي، لم يخلو قلبي من الثقة ولا قيمتي من العلوّ، ولم يحدث قط أن نظرت إلى من ليس لي، لست مثلك"

همست غرام بكلمات تحمل وزن الجبال:

"ومع هذا غادرك ولحق بي، ما التسمية التي ستختارينها لهذه الواقعة؟"

غزل بصلابة كانت الرد والحكم:

"أسميه خيانة ونزولاً إلى الحضيض، وجحوداً وهواناً. لقد تسلقتِ درج الكيد حتى انتزعتِ مني رضا وسقط في شباكك، كما لم تترددي في خيانة زوجك معه."

نهضت غرام وكلها عزم وإصرار، لتقف مواجهة لها وتحذرها بصوت يحمل قسوة القرار:

"احذري يا غزل من أن تفتحي معي هذا الموضوع مجدداً، فأنا قادرة بإشارة بسيطة مني على عصف حياتك."

وتضحك غزل كالنسيم الذي يهب وقت الغسق مستهزئاً:

"وكيف بالضبط ستدمرين حياتي؟ أتعتمدين على عربي شقيق زوجك؟ ماذا كنتما تفعلان سوياً في مكتبه؟. تخليتِ عن شهاب لأن قلبكِ صار مسكناً لرضا، وبعد وفاة والدته تركتكِ كما تترك الأوراق الميتة، ورجعتِ إلى شهاب زحفاً وذلاً أمام قدميه، لكنه لم يقبل عودتكِ. وبالأخير تزوج صديقتكِ نور ورمى وراءه كذبك ونفاقك. والآن ترغبين في أن تحصني حياتك بجدار عربي رغم أنه على علاقة بمليكة؟"

وقفت غرام مشلولة الكلام، الدهشة ترتسم على ملامحها في حالة من الذهول. لا، ليس لأن غزل تكشف الحقيقة، بل لأن الذي قالته كان يهدد بكشف فصول من ماضيها التي تتمنى دفنها. غزل تحدق بها ثم تواصل بثبات:

"أتجهلين أن مليكة صديقتي المقربة؟ إنها تفتح لي قلبها بكل ما يدور في أروقة حياتها."

جمعت غرام شتات أنفاسها المتعبة وهزت رأسها تأكيداً مرسوماً على وجهها بابتسامة مفتعلة: "نعم، أعلم ذلك."

تبادر الأمر بغزل لتقود الحرب النفسية بضراوة وتأكيد:

"وإذا لم يصدقوا شهاب الآن والرسائل المتبادلة بينك وبين رضا، فثقي تماماً أن لدي الدليل القاطع الذي سيجعل الجميع يرون الحقيقة؛ دليل يفضحك ويسلط الضوء على ما كان بينك وبين رضا جهاراً نهاراً."

خرجت الكلمات من فم غزل كصرخة غضب ووعيد. ولم تلبث أن سددت غرام صفعة لغزل، رداً عنيفاً لم يكن في الحسبان. نظرت غزل مصعوقة بدهشة، ولم تمر لحظة حتى ردت بنبرة تعيد رسم معالم ستار المعركة الجديدة:

"أقسم لكِ، سأكشف وجهك الحقيقي أمام الجميع يا غرام، لن أفضح فقط علاقتك برضا بل حتى تلك السرية مع عربي. انتظري لتري كيف سأرد لكِ ضربة صادتني في أعماقي."

وجمعت غزل متعلقاتها بعصبية تفيض كلها على وجهها، تعكس روحاً ثائرة ودمعة في عين ترقرقت ولكنها لم تنهمر: تركت غرام وراءها وهي تقطع الممر بقوة، يمكن لغرام رؤية بوادر دموع تتلألأ كالنجوم على حافة الانفجار، ونظرات العزم والحدة تقطع الأفق. أما غرام فظلت واجمة تهضم الكلمات القاسية التي انسالت عليها كيوم من المصائب الذي لا ينتهي.

بعد أن أغلقت الغرفة فصلها الأخير، وجد الحب طريقه للتوحد مجدداً بين أنس وياسمين. كأن الضوء تسرب خلال الشقوق، أزال الظلمة، وأعاد للقلوب نقائها وعذوبتها. خرج الاثنان يمسك كل منهما بيد الآخر، يطوي

صفحة العتاب والدموع ليفتحوا صحفاً جديدة من الأمل والمودة. وتفتح الابتسامات مرحاً على وجوه الحاضرين، وتُقرع أجراس التهاني والمباركات كأنها موسيقى الفرح في قاعة الوجدان.

وفي ذلك التيار الدافئ من المشاعر، دلفت غرام كأن عاصفة من الهموم قد أرهقت كاهلها. ظهرت أمامهم شاحبة الاحساس، بردانة الروح، لتعلن بتجمّد يفتقر إلى الحماس:

"حمداً لسلامتكما..."

لاحظ الجميع بوادر القلق تلوح في محيط العيون، أجمع منهم كنان الذي يُخفي خلف بروده ثورة بركان لم ينفجر بعد. تنهض سيرين بمبادرة مفعمة بالحب تحتضن غرام، تبحث عن تشتت ذلك الجليد الذي يغطي قلبها وتقبّل رأس الطفلة الصغيرة ريم. كنان يتأملها بصمت، يبسُط سجادة صبره ويخطو نحوها بخطوات قررت أن تكون مرتعشة الوقع، تقرع القلوب كما تقرع الأجراس معلنةً لحظة مصيرية.

وها هي غرام في مواجهته، لكنها في حالة من التنويم الذاتي، عديمة الخوف أو الاضطراب. يكاد يستشعر الجميع هذه البرودة حتى إذا ما اقترب كنان، يُحيطها بذراعيه ويطبطب على كتفيها بحنان مصطنع، ومع هذه اللفتة تتسلل الطمأنينة عائدة إلى عيون الجميع كغيمة صيف عابرة.

وجلست غرام وسطهم، تحيط بها براءة الطفولة ريم في حجرها، تحاول كسر هذا التيه الذي أغرقت فيه نفسها، لاهثةً خلف حاضر تضيع فيه. تقطع والدتها تيهها بصوت مسكون بالعطف:

"غرام، باركي لأنس وياسمين، لقد تصالحا."

ترتسم على وجه غرام ابتسامة تفتقد لحرارة الحقيقة مصطنعة كما الظل في الليل:

"مبارك لهما، لقد أحسنا الاختيار."

وتتنهد بعمق كأنّ على صدرها جبلاً مُثقلاً ترغب في إزاحته، فتنهض بملامح شاحبة بالتعب:

"اعذروني، أحتاج إلى الراحة، كان يوماً شاقاً."

وها هو كنان يتصدى لمواصلة المشهد، بصوت فيه جليد البرودة لكنّ العزيمة لم تختف:

"أريد أن أتحدث معك قليلاً، هيا معي."

تتبعه غرام دون نطق، وكأن الكلمات قد تخثرت في عروقها، فيما الجميع يراقبان بأعين مشحونة بالتساؤلات والخوف الملتحف بالسكون.

**

يقف كنان في قلب الغرفة، ظهره ينطق بلغة الشموخ روحه مشتعلة بنيران لا يراها أحد، فيما غرام، تقبع هناك ونظراتها أتعبها الهدوء الممتزج بالعاصفة.

كسرت هي السكون بصوتها:

"ما بك كنان؟"

وعندها انقلبت الصفحة لفصل لم تتوقعه الرواية، واستدار كنان يلبس قناع الغموض؛ ابتسامة مبهمة تخفي بؤس الروح، ومن ثمّ يسير نحو الباب ليقفله ويعيد تشكيل المشهد بتودده الموجع. تقدم نحوها بخطىً موزونة، الأيدي التي مدت الحنان يوماً أصبحت تلوّح بالويلات. وبها صفعها؛ صفعة أصداءها ترتد في فضاء الغرفة، وعيناها دامعة شاردة كأعين من تسير للمجهول.

ومع كل ضربة، يُفلِت كنان الكلمات كسموم:

"هذه لأنك خائنة."

تتلقى الصفعة الثانية وكأنّ كل كلمة تحفر ندبة أعمق:

"وهذه لأنك ألقيت بالعار على كواهلنا ولطختِ شرف العائلة."

ويضيف بصفعة ثالثة تراكم الإهانات والأسى:

"وهذه لأنكِ كنتِ كاذبة وما اعترفتِ بخطيئتك، بل جعلتينا نظنك ملاكاً وأنتِ الشيطان نفسه."

تداولت الصفعات والصمت، حتى جثم الإعياء على كنان وسقطت غرام على الفراش متعبة، وروحُها تلوذ بصمت الخزي.

يقترب كنان وفي صوته كؤوس الإدانة السامة:

"الآن عرفتُ كل شيء. وأختي التي ظننتها فخراً ليست سوى عار. وهذه المدعوة غزل ستفضي بالمزيد عندما ألتقيها، لإنها طلبت مني اللقاء مراراً منذ أن كنت في دبي، ثقي أنكِ لن تفلتي من جريمتك بسهولة، كل حيلك ستُكشف."

تخنقه الكلمات، ويتركها واجمة، ممددة في سكون يتجاوز الاستسلام.

يغادر بالهدوء المغلف بالخديعة، ليصدق الجميع أنه كان حديثاً عابراً، أما غرام فيمتزج بكاءها الذي اشتدّ غزارةً مع رجفة جسدها؛ دموعها تدرك أرواح جريمة اقترفتها، وخزي يغلف النفس ويكبلها بأغلال العار. وبقدرة تكاد تغادرها، تنتشل هاتفها بين يديها المرتجفتين الدموع تلون وجهها المبتل، تختار رقم عربي، وما أن يدوي الصوت في أذنها تهمس والعبرة تخنقها بألمٍ مُترع بالحاجة الإنسانية والوجودية:

"أريد أن أقابلك لأمر هام جداً."

الفصل السادس عشر

خيم الظلام على المدينة بانسيابية حالمة، وصمتٌ ثقيل اخترق أرجاء الليل، حتى القمر كان يخفي وجهه وراء ستار من غيم قلق، كأنه يشهد تحت الستر سراً يخشى فضحه. في هذه الساعة المتأخرة حيث الأحلام تلقي بثقلها على أجفان النائمين، وقف عربي وحيداً تحت ضوء شارع خافت، يتابع ثبات الظلال وهي تطول أمامه على الرصيف. جاءه صوتها المتعَب عبر الهاتف كنداء مستغيث يستجدي الأمان، وبعودة كنان القابض على نيران الغضب، شعر بالقلق يحتل أحشاءه.

مع توالي الدقائق، مثل رداء أسود طويل تُرك على كرسي الليل، انحرفت سيارة غرام في الطريق المقابل حيث كان يتشح الصبر بمعطفه الثقيل. خرجت من سيارتها بخطوات راسخة وواثقة، وإن كان وجهها يحمل الجمود كقناع مسرحي إغريقي، فملامحها متعبة وكدمةٌ تعلن عن نفسها على إحدى ملامحها بأسلوب العتاب.

يختلج قلب عربي بمزيج من الصدمة والألم لمنظرها، فكيف لزهرة كغرام أن تتلقى الأذى بهذه القسوة؟ كانت كلماته بالكاد تتسلل من بين شفتيه، محملةً بالقلق الذي شقّ صدره:

"ماذا حدث غرام"

أخذت غرام نفساً عميقاً متسللاً من بين ضلوعها المثقلة بالهموم، وتحدثت بصوت أجوف مشبع بتعب الروح والجسد:

"لن أطيل عليك القول. غزل تلك التي تقاسمني فضاء العمل، تخلق في خيالها علاقة محتمَلة بيننا. لإن مليكة قد سرّبت لها الوهم. تتصور الآن أنها يمكن أن تمتلك القدرة على التلاعب بالأحداث لمصلحتها. وتهدد بفتح ملفات الفضيحة التي تخص رضا. ووجهي من صنع يد كنان، السائب في حقيقته الخبيثة، فيما هو يتظاهر بأنه بات هادئ الطبع، ولكنه بادر إلى الصفعات خبثاً وعنفاً حالما خلا بي."

يحاول عربي استيعاب نبض الرواية المتسارعة، فما بين جنون مليكة وهمجية كنان وخيوط المؤامرات المنسوجة، يشعر وكأنه أمام معضلة كونية. يجتاحه الغضب نيابةً عن غرام، غضب لما آلت إليه الأمور، ويقول بنفسٍ عميق يخلو من الريبة:

"كيف لي أن أساعدك؟ أفصحي عما تريدين وأنا مستعد لكل شيء يا غرام"

تلتقط غرام أنفاسها وتنطق الفكرة الجريئة بصفاء الثلج:

"تزوجني."

يسري الذهول في شرايين عربي، فيما تتصاعد دقات قلبه، حلمه المستحيل أمام عينيه يتجسد. تصارع العقل والعاطفة في حناياه، وكل ما في العالم من عائلة وموازين كأنه ينهار أمام إلحاح القلب.

واسترسلت غرام بهدوء يتخللها ارتعاشة الحاجة:

"لم يعُد أمامي سوى أن ألتجئ إلى دفء حمايتك. قد تكون هذه الخطوة مدعاة للمشكلات مع مليكة، ولكن أنا محتاجة إليك الآن. الحاجة إلى أن أنعم بعباءة جناحك حتى يرحل كنان وتهدأ عواصف القلق. أعدك، يمكنني تبرير كل شيء حتى ما وقع من زلات. وإذا آويتني تحت جناحك، فإنني أرجوك ألا تُثير أطياف الماضي، وإذا رغبت بعد أن يغيب كنان عن الأنظار فلا تتردد في الانفصال عني."

ارتعشت أعصاب عربي وتسارعت نبضات قلبه عند سماع الطلب الغير متوقع، وكأن كل العالم قد توقف لثوانٍ قليلةٍ، وحتى دقات قلبه صارت كطبولٍ في عيده الخاص تقرع بنشوة، وشعر بأن الفرصة ممدودة أمامه لتحقيق حلم لم يجرؤ حتى على رسمه في واقعه.

في أعماقه كان يعلم أن رغبته في غرام تتجاوز أي شيء آخر، جميع القيود بدت له قابلة للكسر، وكل الأصفاد مستعدة للانفلات. العائلة، الالتزامات، كلها باتت كأشياء سترمى خلفه كأوراق يذروها الريح. قلبه يخفق بعنف، متلهفاً لتلك اللحظة، للخلاص والانعتاق الذي أتى بهيئة غرام الموعودة.

ليمد عربي يد العون معلناً استعداده، كالرافعة التي لا تتردد في حمل الأثقال، وأجاب بثبات وحزم:

"أوافق، بملء إرادتي وبكل ما أملك من قوة. فأنتِ لن تكوني تحت حماية أحدٍ سواي، ولن يجرؤ على المساس بكِ أحد، فقد صرتِ تحت سماءي التي تحتضنك بكل رمق، والتي لن تتوانى عن سحق كل مَن يجرؤ على النيل منكِ."

ترتمي غرام على كتف عربي، بينما تنبض جوانحه بإيقاع عشق قديم، يعرف جيداً بشرف الكلمة والوعد التي صارت منهج حياته. وتنام القصة بين أحضان الزمن، ترقب فجراً ربما يولد من رحم العتمة.

وفي مشهد يكاد يكون خارق لجدار الزمن والمألوف، اتخذ عربي قراره بشجاعة تنم عن رجولة نادرة؛ فتحدى كل التوقعات واتجه نحو تمكين وعده لغرام بأن يعقد قرانهما في اليوم التالي على وجه السرعة وفي غياب العائلتين عن المشهد. شخص بحضور عربي، مدرك بإيمان لا يتزعزع أن الاتجاه الذي اختاره قد يرسم عواصف من الاحتجاجات في غدٍ قريب، عرف جيداً أن هذه الزيجة لن تجري دون تحديات، لكن عزمه كان أقوى من أي خوف أو تردد.

على الجانب الآخر كانت غرام، التي تعلمت دروس الحياة عبر عقباتها الشاقة، وكان من المفترض بها أن تتسلح بالحذر وتستفيد من التجارب. لكن في إقبالها على هذا الزواج، كان هناك شيء أقوى من حكمة التريث يحركها، وهو إيمانها العميق بأن القوة التي يمثلها عربي ستكون كفيلة بالوقوف سداً منيعاً أمام أي تقلبات قد يحملها القدر. كانت ترى في عربي الشموخ الذي لا ينحني أمام أي عائق، ومن ثم اتخذت قرارها بثبات.

كانت يدا غرام تضم يد عربي بكل ما تملك من قوة. قوة لا تنبع من ثقة فقط وإنما من حاجة عميقة للسند في وقت تعلم أنه سيكون مصيرياً.

بطلب من عربي وحضور والده الذي علت ملامحه مزيج من الجدية والوقار، كانت دعوته موجهة ليلتئم شمل عائلة غرام في مضاربهم، مع التأكيد على حضور شهاب ونور، ويبدو كما لو أن الشمس قد فارقت السماء لتسود حالة من الترقب لما سيعلن.

خلا المجلس من وجود مليكة، التي كان غيابها يضفي المزيد من الأثقال على الأكتاف. فمليكة، التي كانت لتُكمل مشهد الاجتماع، اقتضت ظروفها مفارقة الحدث الذي كان لها فيه نصيب.

غرام، التي كانت دوماً شامخة كالجبال في مواجهة الحياة، حملت في هذا المساء ثقلاً مختلفاً، محملاً بوابل من الخوف صبَّ في روعها، قلقاً من مواجهة الأهل واستقبال ردود أفعالهم الذي سيتقاطر كالدم على الثلج، فاتحاً فصولاً جديدة قد يصعب تكهنها.

المشهد المعاد تجليته، يحيي ذكريات الماضي حينما شابهت نور حال غرام، تود تلافيف يدها الاختباء بين جنبات شهاب، طلباً للسكينة في وجه احتمال الرفض. والآن تَصدح أجراس القدر مجدداً معلنةً أنه جاء دور غرام لتقاسم نور حيز القلق، في موقف يشبهه ويختلف عنه في آن.

وقف عربي في صلب المجلس، وعلى ملامحه ابتسامة بهتت ضوضاءها تحت وطأة الموقف الراهن، فقال بصوت يضج بالثقة المتزنة والهدوء الذي يكسر حدة الصمت المفاجئ:

"أعلم أنّ ما سأقوله قد يهزّ أركان هذا البيت، ولكن قد خُلق الإنسان محمّلاً بأوزار قراراته. لقد وعدتُ غرام بالزواج، واليوم ها نحن نقف أمامكم نحمل هذا الوعد إلى ساحة الواقع."

تسمّر الجميع ووقع الخبر كصاعقة يعزّف على وتر الذهول. كان القلق يرسم ظلاله على وجوه النساء قبل أن يتابع عربي قوله:

"غرام الآن زوجتي، لا يعنيني أدنى تفصيل عن ماضيها، ولا حتى زواجها السابق. ما يعنيني هي فحسب. ولهذا أطلب من أهلي وإخوتي الاحترام والتقدير لها، ومن عائلتها القبول والفهم لهذا الاتحاد."

كانت النيران تلتهب في عيني كنان وهو ينهض، وقفته تلوح بطيف التحدي وصوته كان ينذر بعاصفة قادمة:

"كيف تجرأت أنت وهي على هذا الفعل؟ أهانت عليك أصولك لكي لا تأتِ لتستأذن وتطلب يدها كما يفعل الرجال الشرفاء؟"

جاءت ابتسامة عربي محمّلة بالتهكم والسخرية من تشدُّق كنان المحتقن:

"لو لم يربكني خوفي عليها لفعلت ما يحلو لك الظن به. لكني لا أضمن بقاءها سالمة تحت سقف المنزل، والعلم بما جرى البارحة أرغمني على الشك."

رد كنان بابتسامة قاطعة وصوت مزدحم بالتحدي:

"وها أنت، أتعتقد أنني سأسمح للموقف أن يمر دونما حساب؟ ألا تخِّشى لشقيقتك مما ستسبب لها؟"

بقي عربي صامداً كجبل، معتصراً يد غرام بقوة وكأن يده هي درعها وحمايتها فرد بهدوء يهز الأعماق:

"وما الداعي للخوف؟ لماذا لشقيقتي أن تتحمل عواقب أفعالي؟ لماذا يجب دوماً أن يدفع الأقارب ثمن قراراتنا؟"

وبينما كنان يغرق في تلك الموجة من السكون المشتعل، أضاف عربي بنبرة تحمل طيفاً من التحدي:

"ثم أنه لن أتفاجأ لو هبت رياح الفراق بينك وبين أختي، فلن يعد يروق لنا رجل مثلك في حضن العائلة."

تدخل شهاب بنبرة عازمة ونظرات ثاقبة موجهاً كلماته لعربي:

"أظنك أصبحت تنسى، ألم تخبرني يوماً بأن طيشي وأفعالي كانت قادرة على هز عرش حياة سيرين مع كنان؟"

كان عربي كالصخرة الصامدة، ومع ابتسامة عابرة محملة بالألق والثقة رد ساخراً:

"لا، لم أنسَ بتاتاً، لكن الفروق بيننا تستحق العناية بالذكر. أنت أردت الإساءة، بينما أنا الآن أحتضنها للحماية والعطف."

وحل الصمت ثواني وجاء صوت عربي يخترق الهدوء بسخرية لاذعة:

"إن كان يعتقد كنان أن سيرين ستكتوي بنيران فعلتي فهو مخطئ. لن أستغرب فعلته، فقد سبق وفعلها شقيقه من قبله."

وبعد لحظة صامتة، أخذ عربي الكلمة مرة أخرى ونظر إلى كنان بعينين تنضحان تحذيراً وإنذاراً:

"غرام الآن زوجتي، وأقسم لكم جميعاً إن همّ أحد بكلمة تُسيء لها، سأقتلَعه من وجوده دون اعتبار لقرابة أو صداقة أو رابط."

عزز سيطرة الهدوء وجود مسافة الانتظار، حيث تبادل الجميع النظرات المحمّلة بمعاني مختلفة. بينما تحوّلت عيون أنس إلى خليط مستعر من الغضب وغيرة الأخ الذي طُعن من حيث لا يدري. وهناك، في ذلك المجلس المحموم بالعواطف، انكفأ كل فرد داخل شرنقة مشاعره الخاصة.

عربي، بثقة القائد الذي أمسك بزمام الأمور، استشعر بأنه حان وقت إرساء قواعد جديدة في هذا البيت العتيق ولهذه العائلة التي اعتادت على أفعال الشرف والأصول. فتكلم مجدداً متجاوزاً كل حدود التردد.

"أنا متحملاً لمسؤولية قراري الذي لا أندم عليه. غرام هي شريكة حياتي وسأحميها بكل ما أوتيت من قوة وصمود."

شهاب، ذلك الذي كان يوماً مثار تهور وطيش، يتأمل الوضع بعين الشك. فأدرك أن جداول الحياة لوّنت قلبه بعبرٍ وعظات. ومع هذا الإدراك، تمتم بكلماته لعربي، حاملةً في طيها بعض ثمرات حكمة بلغها:

"ليس بالقوة وحدها تُحفظ الروابط. أتمنى لكما الخير والسعادة، وأتمنى أن لا تندم في يوم من الأيام"

حافظ عربي على وضوحه في معانيه وحزمه في تعابيره، وأعاد التأكيد على نقطة الحماية والعهد الذي أغلق عليه قلبه:

"الحياة تعلمنا، وأحياناً تجبرنا على الاختيار بين ما هو صعب وما هو أصعب. لكن في النهاية، ما يحكمنا هو صدق العزم ونبل الأفعال."

وأردف عربي:

"أعلم أن هناك سؤال يدور حول مليكة، وأود أن أوضح للجميع بأنني وغرام قد تحاورنا بعمق حول المستقبل. لن أتخلى عن مليكة، وإن كانت الأمور تتجه بما يرضيها، فإنني لن أتوانى عن الوفاء بوعدي وأتزوجها أيضاً، فأنا لست من الذين يهربون من المسؤوليات أو العهود."

في غمار الأحداث والمواقف المتباينة، وقف والد غرام صامتاً لبرهة، يتأمل الوجوه المحيطة به ويستوعب وقع الأخبار التي قصفت بهدوء وهيبة الليل. أثقلت عيناه بحكمة الأعوام وبزخم الأبوة، وهو يتنفس عمقاً ويجمع خيوط اللحظة . ثم تقدم بقامته الوقورة وتحدث بصوتٍ يشع منه ضوء الرضا الممزوج بأثقال القلق:

"لقد آن الأوان لكل طير أن يختار سماءه، وكل زهرة أن تمد جذورها حيث تشاء. غرام ابنتي، وقد وضعت بيدها تلك الثقة التي تعطى للأبناء عند اختيار طريقهم."

التقط ابراهيم نفساً عميقاً وواصل بصوتٍ رزين محمّل بالتهاون لحدة المفاجأة:

"الحياة تجري بنا في منعطفات لم نكن لنرسمها على خارطة أمانينا، لكننا نستسلم لقدرها ونحن نحاول أن نختار الأفضل. زواج غرام من عربي قرار تم، ودوري كأب هو دعمها والوقوف إلى جانبها."

ويرسل على الجمع نظرة تعكس دفء قلبه الأبوي وأمله الخفي:

"أتمنى من القلب أن يكون هذا الزواج بداية لسعادة ابنتي التي لطالما سعيت لأجدها لها. وأؤكد على أن بابي مفتوح لها ولعربي متى ما احتاجا لدعمي أو نصحي."

ومع تلك الكلمات المفعمة بالأبوة الحقة، قوّم والد غرام عمود السنين بين يديه، مقدماً بذلك لمسة من الصلابة العاطفية التي تملأ رئة الأسرة في أوقات الاضطراب. وهكذا وضع الأب ختاماً لنقاش كان يمكن أن يتفجر لكنه أهدئه بسكون منطقي ونبض صابر، وابتلع كنان بركانه، لتعلو ملامح كنان ابتسامة مُثقلة بألغاز كثيرة، لكنها عميقة وكأنها تحمل بسملة لفصل جديد:

"مبارك لكما، أتمنى لكما كل السعادة."

وبذلك الإقرار ذو الدلالات المتعددة، مد كنان يده لمصافحة عربي، ثم جذب أنظار الجميع نحو غرام. ابتلعت خطوة للوراء بدافع الخوف أو ربما استيعاباً لموقف كنان المتغير، إلا أنه تقدم و قبل جبينها، قبل أن يلتفت للجموع ويعلن:

"ألن نأكل ونتضيّف بهذه المناسبة؟"

ومع تألق ابتسامة نافرة على محياه، طافت أعين الجميع بدهشة عارمة، لا سيما سيرين وغرام اللتان بنظراتهما العميقة انزوتا في ركن من الاستغراب.

عربي، وهو يلقي نظرة محمّلة بإيماءة السخرية والتبرّم، أجاب:

"بوسعكم أن تتضيّفوا بكل ترحاب، أما نحن فقد حان وقت الانصراف إلى منزلنا. وإن أردتم الزيارة، فأبوابنا مفتوحة لكم، أهلاً ومرحباً."

وأنهى عربي حديثه بابتسامة تحمل خليطاً من الحنق والعزم ملتفتاً نحو كنان الذي كانت نظرته معقدة، تشي بأن وراء صمتها قصص لم تُروَ بعد. وتلك الابتسامة التي رافقت نظرته كانت فيها شيءٌ من الريبة، تصيب الناظر في مقتل الفهم.

ليلتقط يد غرام التي ظلت صامتة طوال الوقت كمن يحاول استيعاب صدى أصواتٍ عالية في ممر هادئ. انطلقا معاً نحو بداية جديدة، خلفهم بيتٍ اكتظ بالأسئلة التي تتبعهما إلى أن اختفيا من الأنظار.

في السكون الذي يمتزج بحركات الروح العذبة، كان عربي مسبل العينين، يتلذذ بتأمل غرام التي تربعت على عرش قلبه واستولت على كل متاريس العقل. مستغرق في تفحص كل ملامح وجهها البديع، وكأن فيها ألف سر وسر. أما هي، ففي تلافيف خجلها الملائكي، كلما التقت عيناه بوجهها هاربة تكتم ضحكتها الفيروزية خلف شفاهٍ ترجف قليلاً.

وفي لحظة قد كانت كالخلود، جاء رنين الجرس كطلقة مفاجئة تقتلع جذور اللحظة من أرضها، سرعان ما علت ملامحه حمرة غضب وصرخ:

"مَن ذلك المجنون الذي يطرق الباب بهذا التوقيت؟!"

لمعت عينا غرام بريق الذهول وكظمت ضحكة هادئة لا تكاد تُسمع. فأدرك عربي حينها أن صفحة الغضب قد تقلبت من كتابه بغير قصد، فحمحم محاولاً إعادة الوئام لصوته، وتوجه إلى الباب. وحين فتحه تهاوى العقلان وتعالت الأصوات؛ إذ دخلت مليكة كإعصار صائحة:

"أين هي، تلك الخائنة؟!"

نَفَس عربي نفساً تململت فيه فترات من المعرفة، فهو يعي أن مليكة عاطفيَّة ولكنها بالطبع ليست لتمس غرام بأذى، بينما تجابه غرام الأمر بقلب من جليد وعينان تتفرسان في الواقعة:

"لقد تبيَّن لي الآن ما كنت أشك فيه، تركتِ شهاب وانتقلتِ بسلاسة إلى عربي فور انقضاء العدة، من كل رجال الأرض لم تجدي إلا من كان يوماً لي؟"

قالت مليكة بغضب جارح.

عربي يتنفس عميقاً فتصطدم أنفاسه بتلاطم الأمواج داخله، محاولاً تهدئة روح العاصفة التي تسكن مليكة:

"مليكة، هدئي من روعك، غرام ليس لها ذنب في ذلك، زواجنا كان بطلب مني، إنه واجبٌ نبيلٌ للحماية والعرفان. واعلمي أنكِ لستِ بأقل اهتمام عندي، حاولي فهم ما أقول أرجوكِ."

النيران كانت في عيني مليكة، وصوتها كان صدى لا تحتمله الجدران، فقد سألت والغضب يعتصر كل حرف:

"ما هذا الوضع الذي تدعيه؟ وكيف لهذه المرأة التي تُغرق في لجة الخيانة أن تستحق الحماية؟ غزل أخبرتني بالحقائق، وأخبرتني عن علاقات مشبوهة، وأسرار تُخفيها غرام عن الجميع!"

تطاير الضيق في أنفاس عربي وهو يدفع بالكلمات من بين شفاه متثاقلة:

"يا مليكة، ما تجود به غزل إنما هي أضغاث أكاذيب، لا تصغي إليها، لم يكن إلا تتويجاً لواجب الحماية التي انتُزعت من تحت أقدامها. لا يمكنني أن أصد عني ضعيفة لجأت إليَّ تبتغي السلامة."

ومليكة في شراسة العواطف الجياشة رمت بالتهديد والوعيد:

"لازمها ورافقها، حتى إذا الخيانة جاءت في ثيابك ستتجرع مرارة كأس لا ينتهي طعمه. تذكر، لقد كان شهاب ألمع بكثير، وعرف كيف يضع حدّاً لخبثها. وبخصوصي أنا، فلن أكون يوماً الاختيار الثاني أو الملاذ الاحتياطي لأحد، فلتبق مع من هي في مستواك الأرذل."

وفي ذروة النزاع العاصف، دت مليكة الباب وراءها بقوة الإعصار، وكأنما كل زوايا البيت قد اهتزت لصدى صفعتها. وفي صمت استتبع العويل، ظهرت على وجهي الصامدين بصمات ابتسامة، كبصيص نور يشق ظلمات عاصفة، ثم تبددت كأحلام تستيقظ على أرض الواقع.

وقفت غرام بكامل قامتها أمامه، في عينيها بريق الحقيقة وفي صوتها لهجة اليقين، إذ أعلنت بصراحة تخلو من التردد:

"هي من اختارت هذا المسار بمحض إرادتها، أما أنا فلا يتعلق الأمر بي. وبالتالي هذا المنزل سيبقى لي وحدي، ولن أقبل بمشاركة أحد لي فيه."

وبخدر كامل اقترب عربي ليحيط خصرها قائلاً:

"أنتِ المستحوذة على كياني وكل ما أملك، فهو مُهدى لكِ دون سواكِ. ولم يعد في القاموس متّسعٌ لفكرة أن يتقاسم غيركِ هذه الأمانة."

تمايلت أسارير وجهها بابتسامة رقيقة تنساب عذوبةً، وما لبث أن خضع لسحرها الآسر، معانقاً لشفاهٍ تُرْوي ظمأ الروح التوّاقة. طال الانتظار وتراكمت الأشواق، مظلمة كانت السنوات بغياب نبض قلبه، يجاهد في سلسلة جليدية من الإمساك بمشاعره. وأخيراً، أطلّت هذه الليلة لتذيب قيود الكتمان؛ سيُحوّل ما يختلج في صدره من أحاسيس مكتومة إلى لغة الأفعال الصادقة.

الفصل السابع عشر

جلت عجلة الزمن بحلكتها وترحالها، مخلفة وراءها رتابة الأيام التي مضت على الحميع.

فمن حهة كانت حياة شهاب ونور تسير في اعتيادية ملفوفة بطبيعية الأيام المنسابة، لا تحوم حولها غيوم المشاكل، باستثناء الفراغ الذي كان يستتر خلف غياب عمة صوت طفل يملأ أرجاء المنزل. نور بقناعة وإصرار قد طرحت رغبة الأمومة على مائدة شهاب مراراً، ولكنه كان يستتر خلف حجج الوقت غير المناسب، وفي دواخله ترسبات الشكوك التي خلفتها غرام تضارب صراعاً قادها إلى أن تدفع نور ثمن شكوك لم تزرعها.

تُطوق نور في قيد من الرصد المرهق، هاتف تُفتش رسائله، مراقبة تُلاحق خطاها، واتصالات تُفرط في الحراسة عليها كلما اخترقت باب البيت لعالم الخارج. شهاب الذي لم يكتف بسجن ثقته وخلفه لحصون الريبة، بل وسيَّج نور بالحذر والظنون التي ترشقها بالأسى.

تحلي نور بصمت الجبال، مستعصية على الاضطراب وصبرها تمتص زفراته بثوب من الحب، تؤمن بأن الوقت كفيل بأن يُبدد نور كل ظلٍ رمته غرام على قلب شهاب. فهي مشدودة إلى اعتقاد عميق بأن الأفق سيتضح يوماً ما، وسيزول اللبس عندما يُسفر على وجه الحقيقة الساطعة - تلك التي تبيّن أنها ليست بظل لغرام، وإنما نورٌ يستحق الاحتضان.

**

كما يمثل كنان وسيرين شيء ينسج حبالاً من تباينات متداخلة؛ تتراقص فيها خيوط الصبر على وقع نغمات المزاج المتقلب والمشبع بالانفعالات البركانية التي لا يتوانى كنان عن إظهارها. إنه كالسماء العاصفة، قوية بغيومها حيناً ولكنها قادرة على صفاء مُباغت. وهناك سيرين، بمهارة لا تخبو وبسخاء لا يحده حد، تمسك بحيز السكون داخل العاصفة، تعمل على ترطيب حدة كنان المذبذبة بإلحاح حنون، محاولة بتقنية مفعمة بالرجاء أن تذوب شظايا الجليد المتراكمة فوق قلبه، لعلها توقد به نار الرأفة والعطف على شقيقته غرام التي مازال يكابر عنها.

**

أما أنس وياسمين، فهما "دويتو العاطفة" الذي لطالما تأبط نغماته تناقضاً يشبه حركة الأوركسترا؛ مزيج من الإيقاعات المتنوعة والحميمة. تتأرجح حياتهما بين سلسلة المشاحنات العابرة واللحظات الهائئة التي تُجسّد أعذب المعزوفات الأسرية، وذلك مع كل بُعد وأفق جديد يُطل عليهما مع تطورات طفولة ولدهما، حيث تألقت ومضات الفرحة مع تتابع خطواته الأولى، كل خُطوة كانت إيماءة للبدايات الجديدة، وكل ضحكة صغيرة منه تجددت كأفقٍ زاهر ينشر في قلوبهم نوراً وأملاً.

كل ذاك الدفء يُزينه خبر حمل ياسمين الثاني، فقد حلّقت تلك البشرى مثلما يطير الطائر بين أرواح العائلة، محمّلاً بأجنحة البهجة والغبطة، فتتسابق القلوب داخل العائلة وحتى بين الأصدقاء في الشوق إلى ضم المولود القادم، وانتظار ذلك الملاك الصغير الذي سيرفع منسوب حبسة الأوكسجين في غرف الحياة باستنشاقه الأول، فتطوى صفحات الصبر بانتظار عناق ذاك الكائن الجديد الذي يكمل موسيقى الأسرة بأنغام حياة ترتشف القادم من الزمان بكأس يعج بالنعيم والسعادة.

**

يستلهم عربي معاني الهيام ويقتفي أثره يوماً بعد يوم في الدروب التي تخطو عليها غرام، وذاك في عشقٍ يتسم بالانسياب العميق رغم يقينه بأن نبضات قلبها لم تتوحد بعد مع نبضات قلبه المولـه. إلا أن الأمل يظل يُمسك بمجذافه، فهو العاشق الصبور الذي اختار أن يكون العازف على وتر حبها الخفي، متحدياً ذاك الصمت الكائن بينهما. ففي كل غفوة لليل وكل صحوة للفجر، يُقرّ في قلبه عهداً جديداً بأن يكون ذلك الرفيق الذي تُشرق به حياتها، وأن يكون ذاك الدليل الذي يبرهن بأن اختيارها لم يكن سوى بوصلة تقودها نحو مرفأ الأمان.

كانت حياتهم تعمّها تلك الهدأة التي توحي بنسمات المحبة وحنايا المودة، لكن ما حدث لـ غرام من مرض لئيم صمّ فيه سرُّ الحياة – السرطان الذي ألمّ بكليتها - أحال قلبه الذي كانت قساوة الخبر تخترقه كالغمامة السوداء التي تطمس وضح النهار، جعلته يكابد حالة من الهلع العميق والعبث الشعوري الذي لا يطاق.

ولكن لم تزعزعه تقلبات القدر، بل امتطى صهوة الإيمان ممسكاً بحبل الله الذي لا ينقطع. ففي مواجهة محنة غرام التي لم يرى فيها إلا مراحل اختبار قدرة النفس على التحمل والصبر، كان يردِّد دوماً "الحمد لله في السراء والضراء". في كل صباح ومساء، يرفع يديه إلى السماء متضرعاً، سائلًا الشافي المعافي أن يحيط غرام بلطفه ويكتب لها الشفاء.

لم يكن عربي مجرد صاحب قلب مفعم بالمحبة، بل كان نبعاً لا ينضب من الأمل والتفاؤل، ينثرها يومياً على درب الشفاء الذي يسير فيه مع غرام. يرافقها في زياراتها لأخذ الدواء، وفي كل لحظة للمعاناة يظل بجانبها بسماحة نفس وعزيمة لا تلين؛ يشد من أزرها ويزيّن لها الطريق بالورود، حاملاً لها بهجة روحه حتى في أحلك الأوقات.

ومن هنا، انعكس صدى هذه الروحية العميقة على كل من حولهما؛ فغدت حالة غرام قنطرة جمعت القلوب ولَينت لها الأحقاد. لقد تقاطر الأهل والأصدقاء، ينثرون على محياها كلمات التشجيع والدعاء، كما لو أن شفائها أصبح مُبتغى مشتركاً تقدسه الروح الإنسانية.

**

مليكة، ذلك الطيف الحائر بين ذكريات الماضي وواقعه البعيد، لم يزل محتفظاً بجمرة الحزن والخيبة. تعمل على إلهاء روحها بمهام الحياة، تغرق أكثر فأكثر في البحث عن ملاذات تهرب إليها من وهج حب قديم كان لعربي الساكن فيه. تحمل مرارة عهد تعتقد أنه قد ضاع، وشعوراً بالخيانة تجاه وعود ربما طوتها رياح الظروف. تتنقل في فلك حياتها وحيدة، وإن كانت في خضم الصخب الأنيق، إلا أن في ركن قلبها فراغاً عميقاً، فسيحاً كالفضاء، عصيًّاً على الاكتمال.

**

أما غزل، التي كانت تعبئ نفسها بنزعة الانتقام وتلذذت لحظات بخطوط مكائدها، آملة بأن تنسج منها شباكاً لغرام، واجهت انقلاب الأقدار. كانت تتربص لحظة الكشف والافتضاح، ولكن إذ بزواج غرام من عربي، دارت الدوائر وأدركت أن لعبة الأقدار كانت لها بالمرصاد. كُسرت حلقات خطتها، ووُزعت أوراقها بين الريح.
هُزمت غزل في المعركة الكبرى التي ظنت أنها ستكون فيها البطلة المُتوَّجة، فانسحبت بصمت من المعترك، تاركةً الساحة لضحايا وواقع جديد لم تعُد جزءاً منه.

في غرفة مغمورة بضوء أبيض، يجلس عربي على كرسي جلدي مُقابل الطبيب المختص. الجو مشحون بالتوتر والقلق الذي يُمكن قراءته بوضوح على ملامح وجه عربي المتقلبة. في يد الطبيب صورة شعاعية، يُحدق بها أكثر من مرة محاولاً فهم الملامح الباهتة التي تُظهر كليتي غرام اللتين خُيم عليهما الوهن.

الطبيب مُسند ظهره إلى كرسيه، يحمل نظرة جدية وعينان تخفيان وراءهما سلسلة من القرارات الصعبة. بصوت محمل بالخبرة وبالهدوء المهني، يبدأ بالكشف عن الخيارات المتاحة. يشرح بصبر أن الجرعات الدوائية التي كانت تعطى لغرام قد استنفذت أغراضها ولم يعد لها التأثير المرجو.

عربي، الذي تصفح بصمت وترقب كل كلمة تُسمع من الطبيب، ينحني نحو الأمام باندفاع، مع توتر قابع في نبرة صوته المضطرب، ويسأل بخفقان:

"إذاً، ماذا سنفعل الآن، هل من علاج آخر؟ كيف ننقذها؟"

يقترب الطبيب، يضع الصور الشعطاعية جانباً، وبصراحة ينظر في عيني عربي ويقول:

"الحل الوحيد أمامنا الآن هو زراعة كلية. نحتاج إلى متبرع متطابق، ولا بد من الإسراع في هذا إن كان لنا أن نحسن من حال المريضة."

يظل عربي جامداً للحظات، يحاول هضم وقع الكلمات التي لجت إلى أذنيه كسيل جارف. يقاوم دوامة الأفكار الهائجة في رأسه ويجمع شتات نفسه في محاولة لاستعادة التماسك. يتنفس بعمق، يغمض عيناه للحظة، ثم ينظر مباشرة إلى الطبيب.

"أتعهد لك ولغرام، سأفعل ما يتوجب عليّ فعله. سنجد المتبرع. بإذن الله ستعيش غرام وتزدهر مرة أخرى"

ينهض عربي والعزيمة تتوهج في عينيه كشمس الأصيل. بخطى ثابتة يغادر الغرفة تاركاً الطبيب يتأمل في قوة الإنسان وإرادته.

الفصل الثامن عشر

كان انفجار الأمل يتموضع في صدر عربي عندما تكشفت الحقيقة الحياتية تلك؛ أنه وغرام متوافقان بيولوجياً بصورةٍ يعجز فهمها. ولكنه بينما كانت شراييه تنقل إلى عقله هذا الواقع، يعي أن جزءاً منه سيبقى خالداً في غرام، تترجم المساحات الصامتة بينهما إلى تفاهم عميق لا يحتاج إلى كلمات.

مشاعر غرام كانت مزيجاً من الامتنان المغمور بخوف الغامض، فضلاً عن فرصة العيش من جديد التي تتلألأ أمام عينيها كجوهرة ثمينة وجدت في أعماق عاصفة. كل نبضة في قلبها كإيقاع ساعة تجمع الثواني المُعدّة لبدء عهد جديد، حيث يصبح الضعف قوة، وتُزهر حياة جديدة من رحم المعاناة.

أفراد العائلة كانوا مثل قبطان يقف على سطح السفينة يتأهب للإبحار في بحر متلاطم المشاعر. تكلل الأمهات بنظراتهن الدامعة للشجاعة، والآباء يصوغون من تجاعيد وجوههم صلوات خفية تتمتم بها شفاههم، يرتدون الأمل كمعطف في أمسية شتوية ممتلئة بنسمات باردة وغير مرئية من القلق.

في تلك الأثناء، كانت تجهيزات الفريق الطبي تجري على قدم وساق؛ الحركة كانت دؤوبة بين أروقة الجناح الجراحي، مع كل انزلاق للستائر، كل حركة لها معناها ولحظتها. تمر الأدوات الجراحية بين يدي الجراحين وكأنها قطع شطرنج يُعدُّ لتحرك دقيق، تحت ضوء اللمبات الساطعة التي لا تعرف الغفلة.

دقائق طويلة من الانتظار قضاها عربي وغرام في غرفة الإعداد قُبيل العملية، شحنت بالتوتر الصامت ولمسات التشجيع التي ترسلها عينا غرام في غمرة الضعف. لم تكن الساعات قد ناقشت مع الثواني معنى الترقب إلى هذا الحد من قبل، حيث كل ثانية تتسع لتصبح موطناً لقصة بأكملها.

الخط البياني لنبضهما المترابط يعكس توتر اللحظة، بينما يعمل فريق التخدير بانسجام على تمهيد طريقهما لعبور مرحلة اللاوعي. هناك، حيث النبض يصبح أكثر انتظاماً، يسكن كل من غرام وعربي في ثبات مؤقت، وكأنهما نجمان في سماء الظهيرة، مضيئين لكن مغيبين عن الأنظار.

اثناء العملية، كانت الأيادي تتحرك بحذر والعيون تركز على كل نسيج عابر، كل قطبة وكل شق يُغلق بدقة، إنه عمل يتسم بأدق التفاصيل.

وعندما أشار الطبيب بنجاح العملية، كانت تلك إشارة لطي صفحة من الدهشة والقلق وطوي بياضها على لحظات انتصار الحياة على الخوف. المشاعر تفوح كالعطر من نفوسهم، وتنتشر في أرجاء المستشفى، تُغلف القلوب التي شهدت أن الإنسانية مازالت تحمل بين طياتها ومضات من الإباء والإجلال. وتستقر أخيراً هذه المشاعر في مهد من الراحة والتوق لشروق يوم جديد بهما؛ ككتاب قديم كُتبت فصوله بحبر الاختبارات، وأسدل الآن ستاره على نهاية سعيدة تُعيد للحياة إشراقتها.

عند استفاقتهما، كانت الروح قد اجتازت مرحلة الصمت، أنفاسهما تدب في جسديهما كموسيقى هادئة تُلامس القلب. في الساعات الأولى، كان الوجع يُقايض الفرحة برحلة عبر مفاصل وأوردة جديدة، يلوح في أفقهما العافية والبدايات الجديدة.

تلك الأيام التي تلت العملية، سُطرت صفحاتها بإرادة الاستشفاء، يحيط بهما الأطقم الطبية في رعاية لا تنتهي وعيون الأحبة تنظر إليهما بكل الأمل والحبور. كل خضوع للفحص أو قياس للضغط، يضاهي طرق أبواب المستقبل، وكل زيادة في قراءة العافية كانت تزرع في الجميع باقات الامتنان.

تلف الصدمة دهاليز قلب مليكة وهي تستقبل الأخبار؛ أضواء المدينة تتلألأ عبر نافذتها كنجوم باهتة، ليس لها بريق في عيونها الآن. تشعر بزلزال مكتوم في صدرها، بلبلة تصارع لإيجاد موطن في حنايا روحها المضطربة.

إن الأمر لم يكن فقط عن مرض غرام، ولم يكن عن عزم عربي على الوقوف إلى جانبها فحسب، كان عن إقدامه على خطوة جليلة تفوق العلاقات العادية؛ خطوة تنم عن عمق الارتباط والتضحية. يستثير هذا المشهد في مخيلتها إعصاراً من المشاعر المتضاربة، من الإعجاب بنبل عربي إلى لسعة الغيرة.

بالرغم من كل الذكريات والخطوات التي تركتها في مسار علاقتهما، تجد مليكة نفسها أمام واقع جديد يجعل مصداقية ما كان بينها وبين عربي يتحلل كورقة خريف تتساقط بعد أن أدت دورها في دورة الحياة.

الأسئلة تتزاحم في رأسها، هل كان عربي يحمل كل هذا العمق والتفاني دوماً؟ هل كانت هي عاجزة عن إستثارة مثل هذه المشاعر في قلبه؟ ومع ذلك، يتخلل هذا التفكير رحمة وتفهّم، ففي عتمة لحظة من الشك والحيرة، تشعر بحبل رقيق من الإحترام يتشكل داخلها لهذا القرار الشجاع.

تبقى مليكة متأرجحة على حبل الحيرة بين الشعور بالصدمة والرغبة في استعادة توازنها العاطفي، بينما تحاول مواساة نفسها بأن الحياة تمضي قدماً وتأخذ بطياتها أشكالاً جديدة للتضحية والحب، حتى وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسار الذي كانت تظنه لقصتها الخاصة.

بعد خروج عربي وغرام من المستشفى، نسجوا لأنفسهم نظام حياة جديداً مليئاً بالانضباط والرعاية، يمران برحلة التعافي بروح الفريق الواحد. مشوار التعافي لم يكن مجرد مسار فردي بعد الآن، بل تحول إلى رحلة مشتركة يعزز كل واحد منهما فيها صحة الآخر.

**

وتحت ظلال أشجارٍ كانت شاهدةً على التحولات الفصولية، بدأت فصلاً جديداً من حكايتهما.

غرام وعربي، وجدا أنفسهما هنا معاً، في رحاب الطبيعة التي تحفل بالعافية والحيوية.

تجلس غرام، تتأمل بتمعّن البركة الصافية، يعكس ذلك الماء صورة قلبها الذي تجدد بفضل تضحية عربي. يتراءى في الأفق البعيد عائلات وأطفال يمرحون، وضحكات تتردد مصدراً للبهجة، مزيج متفائل يخلق بسمة حانية على محياها.

"تبدو الحديقة نابضة بالحياة اليوم،" تقول غرام، وهي تنقل بصرها لتلتقي بعيني عربي الدافئتين مُعبرة عن امتنان صامت لهذا الواقع الجديد.

يبتسم عربي ابتسامة تمتزج فيها الفخر بأمواج الرضا، ويرد عليها قائلاً:

"كل يوم يحمل في طياته فرصة للإعجاب بالجمال من حولنا، لكن اليوم هو أكثر خصوصية. إنه اليوم الذي نحتفل فيه بأن قد وهبتُ وأُعطيتُ، كلاهما في اللحظة ذاتها."

يتقاسمان الصمت مجدداً، فقط هذه المرة ملء الصمت ليس الخوف من المجهول، ولكن راحة مفعمة بالسلام. يتناغم نسيم العليل مع نبض قلبين يسيران في درب الصفاء، مُدركين أن ما مرا به لم يكن سوى بوابة عبور إلى حياة مُعاد تصويرها.

في تلك اللحظة الهانئة، إذ بصوت تنبيه رقيق – صدى رسالة نصية يصل لهاتف غرام. تتسع عيناها وتهتز يداها بينما تقرأ:

"لقد اشتقت إليك كثيراً، غرام. أنا الآن في سوريا."

يتوقف نبض اللحظة مؤقتاً، وترتطم نبضات قلبها المضطرب بأضلاعها. خطوط الرسالة تحمل توقيع "رضا".

تتغلب على شعور الذعر الذي يتسلل إلى دواخلها وتخفي توترها خلف قناع من الهدوء المفاجئ. "من الذي يراسلك؟" يستفسر عربي بنبرة تنم عن الاهتمام ولمحة من القلق.

ضحكة متوترة ومتقطعة تفلت من بين شفتيها وهي تكافح لتظل على طبيعتها، وإذا بها تجيب بابتسامة مفتعلة:

"أوه، إنها ياسمين زوجة أخي، تسأل عن الأحوال وتبعث بتحياتها."

يقتفي عربي ابتسامتها بإيماءة متفهمة، غير مدرك للعاصفة التي تجتاح صدر غرام من الداخل.

يعودان إلى حديثهما، لكن عقل غرام لم يعد معه تماماً، إذ تسرح أنظارها خلسة إلى الشاشة المضيئة لهاتفها كلما سنحت لها الفرصة. تقاوم الرغبة في الرد على رضا، تقاوم الأسئلة التي ترتفع كالأمواج في ذهنها، والزيف الذي لاحق شفتيها مع تلك الابتسامة المتوترة.

تزاحم المشاعر والذكريات تسلك مساراتها عبر تلافيف دماغها، يختلط الحنين بالالتباس، والوجد بالواقع، وتبقى غرام في معترك داخلي بين ماض لم يُنسى وحاضر لا يمكن إنكاره.

الفصل التاسع عشر

بثبات الخطى ورزانة المشاعر تتجه غرام نحو الطاولة التي يجلس عندها رضا، تلك الخطى التي تضرب الأرض معلنة حضورها، صوت كعبها عالي الرنين يزلزل سكون المقهى. هيئتها نحيلة قليلاً لكنها لم تفقد بريقها، بل استبدلت زهو شبابها برصانة النضج. شعرها الذي كان يلامس خصرها بحريريته قد اقتُصّ الآن في قصّة فرنسية تزيدها وقاراً، شهادة حية على معاناة كانت وانتهت، على المرض الذي ابتلع منها فصولاً لكنه لم يبتلع إرادتها. تخفي وراء عينيها عاصفة من الأحاسيس المتضاربة، فقد بدأ حبها القديم يشق طريقه عبر الذاكرة تحت وقع تلك النظرات المتبادلة.

"هات ما عندك يا رضا، ليس لدي وقت."

صوتها رزين وكلماتها مختصرة كأنها تغلف قلبها بطبقات من الجليد.

يرسم رضا ابتسامة خافتة، كأنما يحاول اختراق تلك القلعة التي أقامتها حول ذاتها:

"اشتقت لك. لم تفارقين ذاكرتي لحظة"

تعلو نبرة استغراب مصطنعة في صوت غرام:

"هل من أجل هذا طلبت لقائي؟"

يظهر التعجب في عيني رضا، لم تكن هذه غرام التي عرفها:

"ألا يكفيك؟ مابك غرام"

مع زفير عميق، تتسلح بثقتها، تحيط قلبها بأسوارٍ عالية:

"كنت شيء جميل لفترة في حياتي وانتهت هذه العلاقة وانتهينا معها."

"غرام، ليس هناك انتهاء لما كان بيننا، ولو عاد بي الزمان لعُدتُ إليكِ"

رضا، في كلماته لحن من الماضي يحاول أن يعيدها إلى سيمفونية عشق كانت، لولا القدر.

تتبدل ملامح غرام إلى شيء يشبه السخرية وهي تجيب:

"لكنك لم تعد، وأنا لم أُطِل الانتظار. لقد وجدت روحي في اتحاد مع من يعرف قيمتي."

يطلق رضا همهمة من بين شفتيه:

"وهل الرجل الذي يقدركِ أكثر مني هو عربي؟"

تغمض غرام عينيها لجزء من الثانية، تسحب نفساً عميقاً كأنها تستعد للغوص في بحر لجي، ثم تفتحهما مرة أخرى وفيهما قرار لا يتزعزع.

بصوت يتشبث بثقة زائفة، تجيب وتراقص نبرتها أضواء الحقيقة الموجعة:

"نعم، عربي. عربي الذي لم يهرب من ظلالي حتى عندما اكتنفني شهاب بخيباته، عربي الذي احتوى عثراتي ومد لي يد العون دون لفت نظر، عربي الذي لم يقف موقف المتفرج على أوجاعي، بل كان السند والمعين، ومن دون أدنى تردد، قدم لي جزءاً من ذاته، جزءاً منحني الحياة. أخبرني يا رضا، لو كان المرض قدر لي بجوارك، هل كانت روحك لتتقدم للفداء كما فعل هو؟"

يمتد رضا بيدين ترتجفان، كأنما يحاول اقتناص لحظةً من الزمن الذي ضاع، يحتضن يديها بين كفيه وعيناه ترسمان لوحةً معبرة عن عذاب عاشق:

"لكل قلب نبضهُ يا غرام، ونبضي كان دوماً يغني باسمك. أنتِ تعلمين جيداً أن روحي كانت لترتخص لأجلك. لا تغلفي مشاعرك بقسوة الظروف، تأخر عودتي لم يكن بخياري، وها أنتِ تستولين على كل لحظاتي، أريد أن أكون لكِ سنداً وذخراً، صدقيني."

تنسل يدها بتوتر من بين أصابعه، غرام قلعة القوة واليقين، التي لا تتزلزل أمام أحد، تهتز الآن بوجودهِ وحده. رضا الشخص الوحيد الذي لم تزل يدي الزمن عنه ولا واقع الحياة. غرام التي تجيد الوقوف شامخة، تجدها موجعة الخطى وفي قلبها زوبعة من الاضطراب. عربي الذي لم يزدِها إلا خيراً، الذي استحق كل لحظة صدق وتفان، لا يستحق منها سوى الوفاء.

تتمنى لو أن القدر مدّ لها عمراً ينتظر، لو أنها كانت تعلم أن رضا سيعود، لربما لم تسلم قلبها لعربي، لكن بعد كل هذه التضحية، كل هذا النقاء من عربي، كان عليها أن تثقل قدميها بثقل الواجب والامتنان، وتخطو بعيداً عن عاصفة الحنين.

وهكذا، بصوت خفيض محمّل بالألم المكتوم، تضع غرام حائلاً بين قلبها وبين الدموع التي تؤرجحها عتبات عينيها:

"أرجوك يا رضا، سلكتُ بك طريق العشق من قبل وخسرت كثيراً، لا أستطيع فعلها مرة أخرى. لا أريد أن أرى عربي يذوق مرارة الخيبة بسببي. أُناس مثله لا يستحقون إلا الخير. أتوسل إليك، اتركني لحبي الذي نهل من نبع الوفاء، اتركني لأعيش ما تبقى لي من حياة."

تسقط دمعة غرام عنوةً بينما تلملم جراح قلبها، وتبتعد عن طاولة المقهى التي شهدت على زلزال في داخلها، تخبئ الدمعة الهاربة عن العيان، وتصرّ على عدم تبادل النظرات معه مرةً أخرى، تودّع بقايا ماضٍ عاشته، مشيةً مخمِلية، دخان الحبّ الذي تخلّت عنه يتلاشى خلفها.

بينما يتسمر رضا في مكانه، يحملق في ظهرها الذي يبتعد شيئاً فشيئاً، تائهاً بين الأشباح التي تتركها غرام وهي تبتعد. عيناه تحفران في ظهرها المنسحب، ترسمان في الفراغ ملحمة التودد الأخير والحنين المتلاشي. لا يُسمع سوى صدى أنفاسه الثقيلة وهو يحاول جاهداً الإمساك بخيوط الأمل المتداعية.

يخطو عربي عتبة المنزل، وقوامه الصلب يبثُّ موجات من الثقة. ابتسامته الدافئة تنير ملامحه كما الشمس في أول النهار، وفي نظرته حنين لا يُدارى. يجدها تغرق في صوت الصمت. يتقدم نحوها بخطى محسوبة، ليستقر برفق إلى جانبها، وبصوت مخملي يمتزج فيه حنان الأزواج يهمس:

"اشتقت لكِ."

كلماته تجد طريقها إلى ذاكرتها المثقلة، تستدعي أصداء الماضي، تلك الكلمة نفسها، صداها يأبى الصمت. تبتلع غرام ريقها، والأماني المندثرة تتراءى أمامها. تعيد ترتيب مشاعرها المتمردة لترد بابتسامة مرسومة:

"وأنا كذلك."

القلق يزحف إلى قلب عربي، عيناه الباحثتان تقرآن الأسرار وراء وجهها الشاحب، فيقول بلهفة ممزوجة بالخوف:

"حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ هل من شيء يؤرقكِ؟ هل تحتاجين لزيارة الطبيب؟"

ألم غائر يختبئ بين ضلوعها، ومع ذلك تجاهد لتخفيه، وهي ترسل إلى الأفق تنهيدة ثقيلة، وتقلب وجهها صوبه، تبتسم في وهن قائلة:

"لا، لا أعاني من شيء. النعاس يطوّق جفوني فحسب."

يسألها بصوت يفوح بالاهتمام:

"هل ترغبين في تناول الطعام؟ لديكِ دواء يجب أن تتناوليه بعد العشاء."

تلك الدعوة تخاطب روحها المتعبة، وبرغم الثقل الذي تشعر به، تضع خطوة لمجابهة الواقع، تقول في استسلام صامت:

"حسناً"

تعود البهجة إلى عربي، وكأنه طفل استعاد لعبته المفضلة، يقف مزهواً بإثارته لرغبتها في الحياة، فيخبرها والترقب يملأ صوته:

"لقد جلبت لكِ طعامكِ المفضل، هيا بنا."

تمشي معه غرام على الرغم من أن قلبها مثقل بالرسائل التي لا تزال تتطاير من رضا كأوراق الخريف، والكلمات تتراقص على وتين قلبها كلحن حزين لا ينتهي.

الفصل العشرين

في تلك الساعة الموجعة من زمن الخذلان، حيث الوجود يفقد بريقه وتختفي ألوان الطيف السبعة وراء غيمة الغدر، تركت الروح تتشظى على رصيف الأسف. ليست كل التضحيات تؤتي أكلها، وليس لكل جهد بصمة في دفتر الوفاء. ها هو، يتحسس خطاب الاعترافات القاتل بأصابع مبللة بآلامه، خطاب خيانة تمزّق صفحاته شرايين القلب المتعب.

يمسك عربي بالرسالة بيدين مترددتين، يفتح الظرف ببطء شديد وهو يشعر بدقات قلبه تتغير، تعلو وتهبط مع توقعاته المختلفة للكلمات الآتية:

إلى أنبل شخص في حياتي..

أجدني اليوم أمام صفحة بيضاء، كقلبي الذي طالما حاول أن يصبغه حبك بأطياف أمل متفائلة، ولكن بعض المشاعر العميقة داخلنا لا تستجيب إلا للحب الحقيقي.

قد تساءلت ربما، ما الذي يدفع الغصن أن يفرط في أوراقه بعد أن عانقها بحنان طوال فصل؟ لكن صدقني، ليس الأمر دوماً باختيار الشجرة بقدر ما هو انقياد لمواسم الحياة التي تفرض تغيراتها برفق أو بقسوة. أكتب هذه الرسالة وكلماتي مثقلة بالعرفان والإجلال لنبل روحك، لا تقل عنك نبلاً ولا عن كل ما قدمته لي من بذل وعطاء.

لم يفت في خلدك يوماً أنك كنت شيئاً عابراً في حياتي، بل كنت الفارس النبيل الذي أضاء لي دروب السعادة والأمان. مواقفك الرفيعة، وصبرك الوافر، وتفهمك الذي لا حد له، كلها رسخت في قلبي نصباً من الامتنان لا محالة. ذكريات الأيام الدافئة التي قضيتها بجانبك ستظل خالدة، ترفرف على جناحي الحنين كلما مر البال بسماء الماضي.

ما أجمل اللحظات التي أسعدتني بها، الوجوه الباسمة، الكلمات المتلألئة، والأحلام المشتركة التي حلقنا بها عبر سماوات متسعة الأفق، جميعها كانت كجنة وُجدت على الأرض. ولكن يا عزيزي، هناك أشياء وجودية في الروح لا يمكن تجاوزها أو نسيانها. فقد ظلت ذكرى رضا خيط نور متدلي في غياهب عتمتي، يضيء ويخفت ولكنه لا ينطفئ.

لم أستطع وأنا منخرطة في دوامة هذه العلاقة الجديدة أن أقتلع من قلبي جذوراً قديمة لبصيص حب عبر المدى، لذلك دعيت نفسي للهروب. هروباً من العيش تحت سقف الخيانة العاطفية، وهروباً من الاستمرار في حياة تضحيتك فيها التي لن تُكافأ بالحب الحقيقي الذي تستحقه.

رضا، ذلك الطيف الماضي الذي خُلد في أعماقي، لم يكن إلا سراباً في أفق حياتي حتى لحظة ظهوره المفاجئ. أذكر جيداً كيف صددته عندما حاول الاقتراب، كيف حاولت أن أغلق أمامه كل الأبواب التي قد تقوده إلى روحي المتعبة. ولكن وكما يقال القلب لا ينسى عطر من أحب.

مراراً وتكراراً طردت تلك الذاكرة التي حاولت أن تخون سكينتي الجديدة معك، لكنه بقي صامداً مثل شعلة لا تنطفئ، يحرقني بصمت كلما حاولت الفرار. لم يمض علي شهر واحد بل وأكثر، ورضا يلاحقني بظلاله، يمسك بتلابيب ذاكرتي، لا يسمح لي بأن أكون ملكاً لحاضري الذي ظللتُ أزرع فيه بذور التجدد والأمل رفقتك.

كم هو قاسٍ وعبثي بحق تلك الرحلة مع النفس، حيث تجد الروح مقسمة بين ماضٍ يسحبها نحو عمق الأعماق وحاضر تلمس فيه الراحة وتُقَدّر فيه العطاء. أجد نفسي الآن أمام مفترق طرق حيث الوجدان مختلف والروح مضطربة، لا يسعني إلا أن أفسح المجال لصدق مشاعري أن يغدو البوصلة.

رغم الألم الذي يعتصر قلبي الآن، قد تكون الأمانة في العاطفة هي أرقى أشكال التقدير التي يمكن للإنسان أن يُظهرها لغيره. وأنا باحترامي لك ولنفسي، أفضل أن أواجه الحقيقة وأعيشها بصدق بدل أن أمارس نوعاً من الخداع أو الغش.

الطريق التي أمامي قد لا تكون واضحة الآفاق بعد، والخطى التي سأتخذها قد تتسم بنوع من التردد والخوف من المجهول، لكن عزمي على السير بها ينبع من رغبتي في الوصول إلى مكان يحتوي كياني بكل ما فيه.

لا يسعني إلا أن أُعرب عن أسفي، فأنت لم تكن في يوم من الأيام سبباً لشقائي، بل كنت نعم السند والصديق والحبيب. لكنني ومع كل اللحظات الجميلة التي جمعتنا، عجزت عن منحك كلية قلبي الممزق بين ماضٍ لازمني وحاضر جميل جداً، لكنه للأسف لم يكن لي.

أكتب إليك داعية السماء أن تغدق عليك سعادة تفوق ما عجزت أنا عن تقديمه، وأن يُعوضك القدر بقلب صادق يستوعب كل ما لديك من حب وإخلاص.

دع هذه الرسالة تكون وداعاً لما كان، وبداية جديدة لك أنت فقط. وداعاً يا من كنت ملجأ روحي في لحظات ضعفها، ولكن الروح الآن تبحر في بحر آخر بحثاً عن منارتها المفقودة.

بكل الاحترام والحب الذي تستحقه..

غرام.

**

خلال هذا الخطاب لا يعدو سيره أن يكون زحفاً بين أنقاض ما كانت يوماً صالة العمر المفعمة بالذكريات، محفور على جدرانها الآن نقشٌ لحقيقة موجعة. يمسك الرسالة تلك التي كُتبت بخط يد لطالما ارتبطت بالحنان في قلبه، والآن تُمارس برودة الخِذلان. تتردد كلماتها في ذهنه مثل صدى كئيب يتناوب بين الجنبين، يبتلع مع كل كلمة قطعة من كبريائه المكسور.

رنين الصمت يضج في المكان، والأصداء الوحيدة هي دقات قلبه المتفجرة. إنها تلك اللحظات حيث العزلة تصبح كثيفة الوجود، لا صوت يخترقها إلا نداء قلبه الجريح الصادح بألم يتمرد على النسيان. الدمع يعلو في عينيه، يصارع الإفلات، يقاوم الانهيار بكبرياء أخير يتمسك به.

على جبينه تتشكل تجاعيد الإنكار والأسى، وتحتضن عقدة حاجبيه قصصاً من الاستياء. جاوزت الكلمات معانيها لتصبح شوكاً ينغرز في نبضه. وهناك حيث زوايا فمه التي تُظهِر تقاسيم الغضب المبطن، يكمن شرخ يعتصر القلب من الداخل، وهو يكابد هذا الوجع محاولاً حبس مدامع وعدت نفسها بالهدوء لكنها الآن على شفا الانهيار.

**

بعد فتحه لذلك الباب، تطل عائلة كنان وعائلة أنس وشهاب ونور وعيونهم تشعّ ببريق الفرح المعهود للسهرات العائلية الدافئة، غافلين عن العاصفة التي باتت تعصف بقلب صاحب الدار.

سادت الدهشة وهم يخطون إلى الداخل، متسائلين في صمتهم عن سر تلك اليد المتشبثة بالورقة المكرمشة كقلب يتضور ألماً.

ابتسم أنس محاولاً تذويب جليد الأجواء الغامضة:

"أين غرام؟"

لم يكن لابتسامته طوق نجاة ففي الأجواء شيء من الضبابية تتقطر من السقف. أجاب عربي محطماً الصمت الذي كان مهيباً كالجبال، بصوت كُسرت أجنحته وفيه من تلاوين الألم ما يكفي لتعتيق الرحيل:

"اختارت الهروب... مع رضا."

كان صداها يلف الأرواح كغيمة عابرة، تعكس في تلاشيها مشهد النهايات المباغتة التي تلوح في طيات الحياة كمرايا لمعاناة إنسانية مستترة. وهكذا، في ليلة كان من المفترض أن تكون معلماً للوصل، تُرك الحاضرون يواجهون خبز اليأس، متناسين الفرح المرسوم أصلاً لذلك الإطار الزمني.

الفصل الواحد والعشرين

لطالما يعترينا سؤال: كيف لنا أن نسير في موكب الأيام دون أن تشكّلنا تجاربنا ومواقفنا؟ أياً كانت الطرق التي قطعناها، يبقى السؤال قائماً: كيف ستتغير أنفسنا في أفياء الزمن القادم؟ هل يمكننا أن نتحرر من ثِقل التجارب الآسر، أو أننا سنستمر في حمل آثارها كطيف يرفرف بظله فوق مساحات قلوبنا؟

بعد أربع سنوات عِبراً، قد تتشكل الذات وتتلون بأصباغ جديدة لم نكن لنتخيّلها، لكن في حقيقة الأمر، كل تحول ينبت من جذور مغروسة بعمق في التربة الخصبة للماضي. نحن لسنا سوى حدود متحركة تتوسّع وتتقلص مع كل نَفَس نتنفسه، كل فكرة نتأملها، وكل عاطفة تجري في عروق تجاربنا الإنسانية. وما هذا العمر سوى قصيدة

ملحمية نحيكها بأنفاسنا، وألوانها هي خيوط خبراتنا المنوّعة، فإذا ما نظرنا للمستقبل بعين قلقة، لرأينا في كل بحر من لحظاته فرصة للغوص بجسارة نحو أعماق مجهولة، تحتضن احتمالات التجديد والانعتاق.

لكن هل يمكننا فعلاً أن نفلت من قبضة الماضي، أو أننا نحمله معنا كدليل يرشد خطانا عبر مسارات لم تطأها أقدامنا بعد؟ في هذا القبول المتوازن بين ما كان وما سيكون، نجد رقصة الحياة بكل روعتها وتعقيدها. سنة الحياة أن نتغير، أن ننمو، وأن نكون أكثر مما كنا عليه بالأمس، فنسجّل في ثناياها أنفاسنا المتجددة كخطوات ترقى بنا نحو أعالي جبال مستقبلنا المشرق.

**

في خضم هذا الصراع الداخلي الذي يتمزق به عربي، فإنه لا يزال يجد نفسه مغموراً في أفكاره عنها، في تلك الذكريات التي ترفض مفارقته، مثل أشباح الليل التي تلوح في الظلال. يتساءل بحيرة تكاد تمزق نسيج كيانه، كيف استطاعت أن تنحت في قلبه هذا الجُرح العميق؟ وكيف لقلبها الجليدي أن يتحمل ترك قلبه في حالة من الخراب؟ يُداعب عقله سؤال مُلح: ما الذنب الذي اقترفه حتى يستحق هذه القسوة من جزاء؟

غدى عربي شخصاً آخر. لم يعد فقط تحوله جلياً في مظهره الخارجي أو مساره المهني، وإنما تغيرت قسمات شخصيته. إذ تحول الحكيم المتزن الذي كان يستقبل الأمور ببصيرة نافذة وهدوء، إلى كائن غاضب كالبركان الذي يثور لأتفه الأسباب، غاضب من تأخير فنجان قهوته الصباحي، وهو الذي كان يوماً موضع تسامح وعذر للآخرين.

تلك الأنثى التي أطفأت نار قلبها حتى صارت كالجليد، غيّرت من جوهره ووجدانه. فلم يعد قادراً على طي صفحة الألم الذي أورثته إياه، فاجأته بخيانتها لدرجة جعلته يتساءل: كيف يُجازى صاحب القلب الطيب بالغدر؟ كيف له الآن أن يُعبر عن الخواء الذي بات يعيشه؟ عن البغضاء التي استولت على قلبه؟ وإن كان ذلك البغض موجهاً لأفعالها لا لذاتها، تلك التي كانت يوماً حبيبة الفؤاد، جعلت من معاني العشق رماداً وأحالت الحب إلى هوة سحيقة من الاحتقار.

يشعر أن كرامته قد سُحقت تحت أقدامها وغدرها. فجرح الكرامة ليس بالأمر الهين، خاصةً حين ينبع من موقف خذلان.

كان يجري مقارنات بينه وبين رضا، مستنكراً كيف استطاع أن يخدع قلبها ويخون عرى الصداقة التي جمعت بينهما بهذا الأسلوب الدنيء. إن خيانته لعربي بالغت حداً لا يُطاق، فالصداقة التي كان يفترض أن تكون مقدسة، تُداس بلا تردد أو أي لوم.

وها هو عربي يتأمل مرآته الداخلية، يُدرك بأسى أنه هو الآخر لم يكن بمنأى عن خطيئة الخيانة. فقد حمل في قلبه مشاعر مؤجلة تجاه غرام حتى بعد زواجها من شقيقه شهاب، لكن تلك المشاعر استعرت من جديد إثر طلاقهما. يعي عربي أن مشاعر الحب التي حاول دفنها استفاقت لتجد نفسها في طيات القسوة والانتقام. لربما كانت هذه هي سخرية القدر منه.

يذكر أثناء جلسته مع شهاب بعد فرار غرام، لم يكن هناك ما يُقال، فحاصرهما صمت يخترق الأعماق. شهاب الذي كان يوماً ملجأً للدفء، أصبح جليداً يُحدق به بنظرات باردة، ليهمس بكلماتٍ لاذعة:

"حذّرتُك من قبل، تمنيتُ لك ألا تندم يوماً... لكن يبدو أن الأسف سيصبح رفيقك مدى الحياة لارتباط اسمكِ باسمها. الخائن لا يعرف الندامة، حتى وإن حاول تزييف المعذرة، يلازمه طيف عدم الثقة كظله اللازم. إنه كسرابٍ يغري الظمآن بماءٍ لا يُروي بل يزيد العطش، وكم هو بعيد الماء عن الوصول. لتلك الأسباب اخترت الانفصال عن مسارها، فلا غفران لمن لا يستشعر ثقل المسؤولية. الخيانة تنمو في دواخلها كأورام خبيثة، تنخر في جسد العلاقة"

نعم، كانت كلمات شهاب قاسية لكنها حملت الحقيقة بين ثناياها. الخائن يبقى عديم الأمان، وفي نظرة استراتيجية، غرام لا تستحق فرصة ثانية. لم تُهان غرام أو تُجرح في كرامتها، فالخيانة ذلك السم الذي يجري في عروقها، ولتكن وحيدة مع حرقتها وغدرها.

**

تلك الرسالة المشؤومة، أثقلت وجودها لُحاف قلبه، باقية معه، يفضّها كل فجر، يستعرض جملها العنيفة بعينين يغمرهما الرصانة. تُطارده أبجديتها كظلالٍ عالقة، على ما يبدو لا يسعه التلهّي عن ذلك الأسى المكتوم ولا إخماد جذوته المتأججة.

فقد النبض في حياته الخاصة، فهو لا يجد أهمية بالغة في تحقيق الانسجام الذاتي، صحيح أنه بلغ الأوج في مهنته وشهد توسع إمبراطوريته، لكن لم تعد للشؤون العاطفية وزن في ميزان اهتماماته، بعد ما حيك من مكائد.

**

وبخفة ظل، تدخل مليكة وبريق مبهج يتهادى على مُحياها مع حملها للملفات. إذ بعودة مليكة إلى دفاتر حياته وقد لازمته منذ فترة وجيزة، التحقت بموضع الإبداع لديه، تنثر عطاءها في تصميم وإنشاء المحتوى البصري، منيرة بذلك أركان شركته.

وعلى وقع خطوات التحفظ، تم عقد قرانهما تحت إطار ضيق وانتقلت إلى منزله، حيث انبعثت العواطف الفاترة من رحم التجاهل من جانب عربي، الذي لا يريد سوى الاستقرار الأسري وتأسيس نسل دون إشعال الحب.
ومن جانبها، تجد مليكة مخاوف تترصدها بالرغم من جرح قديم، لكنها تغمره بالمودة، وترى فيه قيمة الرجولة الانبل. لذا اختارت أن تغمض عينيها عن الماضي وترسم خطواتها جنباً إلى جنب معه إتماماً لرحلة الحياة.

"صباح الخير، هذه الملفات التي طلبت إنجازها"

قالت مليكة بنبرة مشرقة.

يغلق عربي الوثيقة الماضية ويخبئ أطيافها في درج أسراره، يرتدي قناع ابتسامة فاترة ويقول:
"شكراً لكِ مليكة".

"إذاً، سأعود إلى المهام الباقية، ولا تغفل عن موعد الغداء اليوم"
تقولها وهي تهمُّ بالانصراف.

يهز لها برأسه صامتاً بعدما ابتعدت، يراقب خواء المكان الذي كانت تحتله وقلبه يصرخ في صمت.

وقفت هناك، بين الصمت والنسيم البارد ليلاً في فرنسا، ظلها الممتد عبر الشرفة كان يغازل الشارع الخالي. كانت تحتضن نفسها بذراعين يتلاشى الدفء من بين أصابعها كلما فرّت زفيراً محملاً بأوجاع الذكريات وأشجان الحنين. مرّت أربعة أعوام، تلك المرأة التي كانت يوماً تسابق الفراشات في خفة قلبها، لم تتبدل بشكلٍ يُذكر. إلا لخصلات شعرها الذي أصبح معقداً كماضيها، طويلاً كمسافة الهروب، بناءً على رغبة رضا الذي يرى في غزارته وطوله ملامح الجمال.

عند هروبها تربعت الحيرة على عرش فكر غرام لأشهر طويلة، تأرجحت بين تعاليمها وبين حريتها التي اختارتها، بين زواج لم يعد له وجود في قلبها وبين مستقبل ممكن مع رضا. كانت قد هربت من علاقة لم تعد تراها سوى سجن لروحها، وكان على عربي الذي لم يعد جزءاً من حياتها الجديدة أن يفهم ذلك. وفي لحظة جريئة استجمعت كل شجاعتها لتواجه الماضي حين قدمت طلب الطلاق من خلال السفارات، نتيجة لذلك تم الاعتراف بحقها في اتخاذ قرار مصيري لحياتها وفقاً للقوانين السارية.

وهكذا بعد فترة من الإجراءات القانونية، تمحور القرار حول أن ينال كل منهما حريته، فأعيد إلى غرام حقها في اختيار مسار حياتها من جديد. وبعد أن استكملت الأمور الرسمية، وحصلت على ورقة الطلاق التي شطبت بموجبها العلاقة التي ارتبطت بها، كان الطريق ممهداً أمامها لتبدأ فصلاً جديداً مع رضا.

في كل ليلة تخطو نحو تلك الحافة بين الآن والماضي، فتتداعى أمامها صور عمرٍ قد مضى. يقيدها عشقها لرضا كسلاسل من وردٍ لا تثقلها تلك الأمسيات الغارقة في الحنين. لكن مع كل نسمة عابرة، تتسلل إليها الأسئلة الغائرة: كيف لعربي أن نسج معالم حياة جديدة من خيوط الحقيقة الباهتة؟ هل وجد أبواب السعادة مشرعة؟

كيف واجه غيابها؟ هروبها الذي انتزعت فيه صفحة من روايته، تاركةً خلفها شظايا حُلم كان يوماً واقعاً؟ تساؤلات تحاصرها دون رحمة، دون إجابات. عائلتها، الركن البعيد الذي منذ الفراق لم تستطع التواصل معه

سوى في محاولة واحدة، محاولة مهاتفة والدتها وسرق منها كنان الكلمات لتحل محلها الصدمة، الخوف، والصمت.

عارية المشاعر تقف، تعرف جيداً بأنّ الخيانة قد دُمغت على جبين قرارها، لبستها بإرادتها وتحتضنها على صدرها كوشاح من الأحزان. الجراح التي تسببت بها لعربي لا تزال تصرخ في زوايا قلبها كلما داعب الشك أطراف فكرها، ومع ذلك يأتي طيف رضا كخيط نور في الظلمات، يبدد الغموض ويعيد لها راحة البال، فيجدد عهد النسيان على وقع كل نبضة حب.

استطاعت أن تلمس معاني الحياة الحقيقية بجانب رضا. كان هناك شيء بينهما عميق وحقيقي، شعور لطالما أرادته ورسمته في أحلامها. الحب الذي بادلها إياه رضا كان كآس الماء للروح العطشى، الغيمة في صيفٍ حارق، لكن ذلك الشبح – شبح عربي – لم يزل يطاردها بذكرى ما كان، فتسكنها لوعة الذنب وتنخر ضميرها بين الفينة والأخرى.

في تلك العلاقة الهادئة والعميقة تُبحر غرام مع ورضا، كما قارب في بحر هائج يحملهما نحو أماني وآمال كثيرة، إلا أن أشد المواقف حيرة كانت قضية الإنجاب. شيء أثقل كاهل غرام، هاجس خفي تلتمس له الأسباب ولا تجدها، كلما زارا طبيب يبرم الأمل داخل صدريهما قائلاً: "لا يوجد ما يدعو للقلق"، ومع كل كلمة يضيفها، تشد الحقيقة الأزلية على قلوبهما: بأن المسألة أولاً وآخراً في يد الخالق عز وجل.

في تلك الليلة المصيرية، حيث يعلو القمر شاهداً على الروح المتألمة، تنهدت غرام تنهيدةً محملة بثقل السنين، تنهيدةً تفضح مأساة داخلية بذاتها. وفجأة دون مقدمات رُفعت الستارة عن عِرض مُفاجئ للألم، يعتصر كُليتها فيسرق بسمتها ويمنح مكانها لانكماش وتقلص الملامح. دون تردد تمد يدها لهاتفها وتضغط أرقام النجدة بلمسات ثقيلة.

صوت رضا الذي هو بمثابة هبة الحياة لها، يتدفق من الطرف الآخر، محملاً بأمواج القلق والحب الجارف. وما أن يلامس صوتها أُذنيه حتى يتحرك مُسرعاً كالبرق، مُجنداً كل الأحاسيس ليطوي المسافات ويكون السند الذي تحتاجه في وقت الشدة والألم.

الفصل الثاني والعشرين

تحت سقف منزلٍ كان ذات يوم ملجأً للهدوء والتفاهم، عزفت معزوفة التوتر والخلاف. ارتفع صوت شهاب وكأن الصدى يعيد رنين كلماته المتكررة، تلك التي لم يستجد بشأنها جديد:

"مابك نور؟ كم من المرات أخبرتك أني لا أريد أولاد الآن؟"

كشرارةٍ تشتعل فجأة، تحوّل هدوء نور إلى عاصفةٍ من الغضب، صرخت في وجهه تلك الحقائق التي كانت تثقل كاهلها:

"نحن متزوجان منذ خمس سنوات، إلى متى ستستمر في اعطائي حججك السخيفة؟"

تنهد شهاب، تلك الزفرة التي تشي بالضيق المستسلم، ثم مضى يعترف بعدم استعداده – لعله خوف أو تردد:

"أشعر أنني لست على استعدادٍ كامل لكي أكون أباً، مسؤولية الأبوة ليست بالأمر الهين."

بريق الحدة لمع في عيني نور وهي تنفث كلماتها كاللهب:

"أنت الرجل الذي يفترض أن يكون مثالاً للقوة والشموخ، تتهرب بكلام لو قالته امرأة لخجلت. أنظر إليّ، ألا ترى أن الوقت ليس في صالحنا أكثر؟!"

جلس شهاب على الأريكة يُظهر اللامبالاة لوابل كلماتها القادمة، وهي منتفضة بثورة مشاعر مطالبة إياه أن يُصغي:

"شهاب، أتحدث إليك! أريد طفلاً يجلب الحياة لهذا البيت."

ومع صفاء بحر من البرود يلقي جملته القاضية:

"إذهبي وحضري لي الغداء نور."

فتشتعل فيها ومضة الجرأة وتتقدّم نحوه مطلقة الكلمة التي لطالما دارت في فلك تفكيرها:

"إذاً طلّقني."

قابل شهاب طلبها بابتسامة باردة توحي بأن الأمر لا يعدو كونه رياحاً تعصف بصحراء قاحلة: "أعيدي ما قلتِ."

أكدت على موقفها باستقامة ولم يكن صوتها إلا تعبيراً عن اليأس:

"طلِّقني شهاب، أفعلها وطلِّقني. لم تعد في داخلي القدرة على احتمال آلام الماضي. أرفض أن أعيش أُسيرة حرمانٍ من نعمة الأمومة وأنت تقف على أعتاب التردد. لا تُبقيني في هذا الشغف الدامي؛ عزّ عليّ صبري. نحن بلا عائقٍ يمنعنا من الانجاب، ومع هذا تتعثر خطاك في اتخاذ القرار. كل ما في الأمر أني أتوق إلى طفل يكون منا، وأنت لا زلت قاصراً عن تلك الرغبة. إذا كانت حياتك بلا غرس يعلو ويزهر فلتتركني للقدر. لا تحتبسني بين جدران حياة ذبلت فيها أحلامي. طلِّقني... فقد نفذ رصيدي من العيش بجوارك دون أن أحظى بلقب أم."

وبهدوءٍ يُشبه سكينة الليل الخالية من النجوم، أومأ برأسه موافقاً مُشهراً بها قراره الخالي من اللوم:

"كما تشائين، سأطلقكِ، وتزوجي رجلاً آخر لتنجبي منه الأولاد."

ترتسم على وجهها الدهشة والصدمة، كأنها الآن فقط استوعبت مدى الجدية التي يكمن وراء كلماته لتقول بصدمة:

"تعني أنك ستتخلى عني"

ثار جنون شهاب ليصرخ بها:

"هل أنتِ حمقاء، أنتِ التي تطلبين الطلاق"

انفجرت نور وهي تلومه:

"كان يجدر بك أن تتمسك بي أكثر، أن تحول دون رحيلي وأن تملأني بالوعود. أن تطلب مني البقاء. أن تعدني بالطفل الذي سيُنير حياتنا معاً."

يتنهد شهاب بضيق:

"حياتنا بلا أطفال رائعة كما هي. إن أرضاكِ القرار فهذا ممتاز، أما إن لم يسعدكِ فمنزل أهلكِ في انتظاركِ بورقة الطلاق."

في جلبة عارمة وعواطف تكاد تكون مسعورة، صدح صوت نور وهي تتابع شهاب الذي يستعد لمغادرة البيت، تصرخ بكل الألم الذي عصف بقلبها واتهامات تتطاير من بين شفاهها:

"هل الآن تمنحني خيار البقاء أم الرحيل؟"

ملأ الاستنكار كلماتها وهي تواجه ظهره الذي يتلاشى عن ناظريها لتصرخ:

"بعد كل هذه السنوات تظهر قسوتك وتجهل ما كان يجدر بك معرفته؟ هل كنت تتلاعب بمصيري! أنت ظالم وأناني، أي كوميديا سوداء تلك التي تشخصها، أنا أكرهك؟"

كانت نبرة صوتها تختلط بدموع الغضب والخيبة التي تنسكب على وجنتيها، في ختام ملحمة كانت تمنت لو أنها لم تُسطر أبداً.

"وأحبك أيضاً"

وأغلقت كلماتها المنبعثة كصاعقة تلك الباب الذي أصبح رمزاً لحقبة انتهت، وهو يختتم خطوات شهاب الهادئة وهو يغادر عالمهما المشترك للمرة الأخيرة.

ككل يوم تمتزج أصوات البهجة بالفوضى في قلب هذا البيت. ها هي ياسمين الأديبة الصابرة، تصارع ضجة الأمومة، تطارد خلف ضحكات أطفالها الصغار الذين تلتحف روحهما بالبراءة والشقاوة في آن. وكما يتجلّى القدر، كُلِّفت بمسئولية لا تضاهى عقب ولادة الطفل الثاني (كرم). كانت واحة السكينة التي قد عهدتها لقلمها وأوراقها غدت الآن أسطورةً ماضية. ولطالما كان أنس يحاول استجماع أشتات نفسه وسط هذا الضجيج الذي يجعله بحالة نفاذ صبر.

كانت تجري خلف الصغير كرم الذي استولى على جهازها المحمول بأنفاس مبتهجة وعفوية، محوّلًا الأمر إلى لعبة تثير غيظها المحبب، فتنادي عليه بصوت ناعم تموج فيه تعابير الرجاء والاحتجاج معاً:

"كرم، أيها الصغير، أعد لي هاتفي."

يرد كرم بطيش ملائكي يعج بالبراءة:

"لاااا"

وفي لحظة تتنهد فيها ياسمين بنفاذ صبر، يزيد غيث من لهيب الأسرة بطلب بسيط، يلوح بيده الصغيرة:

"مامي، تعالي، افتحي لي التلفاز."

تنظر إليه وتناجي في أعماقها:

"ماذا عساي أن أقوم به يا صغاري؟ بين متطلبات العمل والطبخ وفوضى المنزل وأنتم... وأبوكم... أه، يا إلهي! متى آخذ قسط من الراحة؟"

تتداخل ضحكات غيث مع صوت أخيه، وتتحول غرفتهما إلى ملعب لضجة نابضة تتسلل لتعبئ البيت بأكمله. يظهر أنس وكأنما الانفجار يدور فوق رأسه وقد استنفد كل الصبر:

"اهدئي الأطفال ياسمين! لدي عمل ينتظر لابد من إنجازه، أووف."

تهز ياسمين رأسها وكأن ثقل العالم خلف جفنيها، تأخذ نفساً عميقاً وتغادر صوب صغارها فتعود الحكاية لتتكرر، وكأنما الدوامة تبتلع كل يوم جديد بنفس السيناريو الأزلي.

لقد تشكّل نسيج الحياة لدى أنس وياسمين مُحاكاً بخيوط تتمايل بين الفوضى والحب الذي لا ينضب. منذ اتسعت دائرة عائلتهما بقدوم الطفل الثاني، غدا السلام مسعى بعيد المنال، وأضحت اللحظات المستقطعة للهدوء كشظايا نادرة يحتضنها الليل. الجديد في حياتهما هو ذلك الحب النقيّ، المشروط ببراءة أطفالهما وهم ينثرون الأفراح مثل العقود المتلألئة في عنق الوجود، يشكّلون بنعمتهم جزيرة راحة في بحر الحياة الصاخب.

لكن في خلفية هذا المشهد العائلي، تلوح قصة أخرى لم تُروَ بعد، قصة غرام، الشقيقة المغيّبة عن العائلة، الوتر المقطوع في نغمات قلوبهم. كثيراً من محاولات ياسمين الجريئة والعذبة للنداء على دفء قلب أنس ودعوته لمعرفة أخبارها وماذا حل بها. غير أن وجه أنس الملبّد بالغضب ونبرته التهديدية كانتا دوماً سياجاً يحول بين ياسمين وأحلامها في تلك المصالحة العائلية، وكأنما تلوّح لها بلافتات النهاية. كانت تواجه دوماً حزمه وقراره الصارم: لم يعد لدي شقيقة تُدعى غرام.

يستقرّ السكون والخيبة في ركن قلب ياسمين مرةً أخرى، تلك الشريكة التي تدرك ما يُخفيه زوجها من ألم لا يُسطّر. كيف ينكر شقيقته التي كانت يوماً ما قطعة القلب المدللة في أحضان العائلة. وعلى الدوام تلفّها سحب الأمنيات لتجبر كسر الروابط المبعثرة وتُعيد نسج حكايةً لم تنته، تكتبها الأيام بإرادة أو بدونها.

بخطى موزونة تنم عن صرامة لا تتزعزع، اخترق كنان جدران الصالة، وشقت عيناه ممرً عبر الفضاء المحتل بالألفة. بفعل الضيق المتنامي أطلق زفيره المتثاقل، فاستقر بهمة محطمة على حافة الأريكة. وهناك أمامه بزغت معالم حياة أخرى في تباشير ضحكات طفولية لا تعي هموم الكبار؛ ريم بضفائرها الداكنة التي بلغت السادسة من عمرها، ورنيم البرعم الصغير في عامها الثاني.

أبصرته سيرين ولفحها بصره بنظرة خاوية، ولكن حينما اقتربت منه مصحوبة بابتسامة لطيفة، أمسكت يده برفق دافئ فسألته بنعومة متعاطفة:

"مابك"

رد كنان وصوته ينبض برطوبة الأسى وهو يدير عينيه بعيداً:

"تلاشت العدادات التي حصيتها خلف كل محاولة يائسة لاستجداء عربي ببضع كلمات تفضي إلى مخبأ غرام، صمته المعتاد صار نغماً يطرب مسامعي باليأس، وأي عجز هذا الذي يدفعني للفشل في كل محاولة للبحث بنفسي!"

صاحبت تنهيدة سيرين غمامة من الحزن؛ أدركت قمة الوجع الذي غدا جبلاً يحجب شمس حياتهما. لطالما رقصت على ضفاف النسيان كأنه نهر تريد أن تغمر فيه ذكراها، في حين لم تفارقه هو مرآة الذاكرة التي يصر على ألا يمحو منها وجه غرام المغيب. وبصوتها العاكس للهدوء، حاولت أن تمتص نيران غضبه:

"دع عنك هذا الهاجس يا كنان. لا شك في أن غرام تعيش الحياة تحت شروطها الخاصة الآن، حرية اختارتها وثقلت كاهلها بمسؤولية كاملة، ثم لماذا تنهك نفسك بالهم؟ فإن كانت قد اتخذت دربها بلا تردد، فلماذا تحرق أعصابك بهذا القدر؟ وإن نحن أبصرنا نهاية القصة، فأنت تعي جيداً أنه لم يكن يوماً بوسعك أن توجعها، لأنها في النهاية شقيقتك التي لن تهون عليك أبداً."

لكن كنان كان كالبركان في خضم ثورته، فقد اهتز من مكانه من دون ملاحظة عيون فتاتيه المتسعتين بالدهشة:

"أخطأتِ الظن تماماً يا سيرين، فقد راودتني أحلام اليقظة، أعيد فيها تمثيل مشاهد الانتقام من غرام، و أنت تأمريني بالنسيان، بينما هي من دمرت حياة أبرياء ليس لهم ذنب. عربي، شهاب، ياسمين، نور، لقد سقطوا جميعاً ضحايا لفعلتها بصورة أو بأخرى. وتأتين أنت لتطلبي مني رحيل الذكريات؟ لا... لن أنسى، اسمعيني جيداً، لن تمحى غرام من ذاكرتي ولن أغفر لذلك الحقير الذي رافقها في هروبها"

اغتلم كلماته اللاذعة جو الصالة، وتحت نظرات طفلتيه المذعورتين وقف متثاقلاً وتوجه صوب الغرفة بخطى تتراقص على وقع الغضب. ولما صفق الباب بقوة خلفه انعطفت سيرين نحو صغيرتيها، تلقي بحضنها وتهيأ لإشعارهما بالأمان، مرددة بين همهمات تهويدة ملائمة للموقف فصولاً تريح قلبيهما وتزيل غشاوة القلق الذي حيك من قبل والدهما.

ها هو كنان، السنديانة الشامخة التي لم تنكسر أمام عواصف النسيان، ثابتاً في ذكرى أليمة لا تبرح مكنون صدره. إن تلاشت الحادثة في أذهان الأخرين وتبددت كالضباب تحت لهيب الشمس، فإنه يجد نفسه وحيداً في أرض الحفظ والذكر، حيث حقده الجامد على غرام يتجاوز بحراً من الزفت الأسود، أعمق وأشد سواداً من مشاعر عربي المحطمة، عربي الذي تحولت حياته إلى أطلال بعد أن نثرت غرام زهور هروبها البرية تاركةً خلفها صحراء الفراغ.

منذ أن تشردت غرام في أزقة القدر، وكنان يلاحق سراب مسارها بحنق مستعر، متربصاً بأدق دليل يحدوه لاكتشاف أرض تأويها. ولكن النتيجة كانت دوماً باباً موصداً وصمت عربي المتعنت الذي ظل يتكتم على السر، تاركاً كنان يتخبط في عمق بحر التساؤلات. جلّ ما حصده من تلك الرحلة الطويلة عبر الأسئلة المرهقة كانت خفقات غضب سابحة في محيط وجدانه، تولد معها شرر المشاكل العائلية التي كثيراً ما تظهر لتتقذف رمادها على نسيج علاقته بسيرين.

ولكن في خضم هذه الأزمات العارمة، يعلو دائماً مرساة الحب التي تجمع شظايا القلوب، فيعودان إلى لحمتهما الواحدة رغم المرارة العالقة بأطراف أيامهم. كما الذهب يزداد قيمة بعد الصهر، كذلك يزداد حبهما قوة وتماسكاً بعد كل محنة، فيشع حبهما في الأماكن القاتمة، مكرساً روابط الاحترام والتآلف بينهما.

كما أنه لم ينسى ما ألحقت من أذى للعائلتين، فقد وجد أهلها أنفسهم غارقين في بحر من الحزن والاضطراب. تاهت نظراتهم بين جدران المنزل الخالي، كل زاوية تصدح بصدى ذكرياتها. كان الألم يعصر قلوبهم في كل صباح يبزغ دون وجودها، والأسئلة تزداد انكشافاً مع كل ليلة تمضي بعيداً عن أحضانهم. لم يرغبوا سوى في عودتها الآمنة إلى وكر الأمان.

في الطرف الآخر، استقبل أهل عربي الأمر بمزيج من الدهشة والتبرم، وأصابهم القلق على سمعة العائلة وما قد يلحقها من غمز ولمز. صاروا يبحثون بين النسيج الاجتماعي عن سبل لتدارك الموقف والمحافظة على مكانتهم، محاولين إيجاد تبريرات تخفف من وطأة الهمسات والأقاويل. كان تحمل وزر القصة أمراً يصيبهم بالإرهاق النفسي، آملين بأن تنتهي القضية بأقل قدر من الفوضى.

الفصل الثالث والعشرين

كان يتوسد ظهره على جلد مقعده العتيق، وقد أرسل رأسه إلى الخلف في استسلام تام للصمت المخيم في أرجاء المكتب. الأفكار كانت تختطفه إلى متاهات عميقة من الماضي، تارةً تلقي به في جلبة الذكريات المريرة التي باتت تحاصره كسحابة داكنة لا تنجلي. قلبه الذي زماناً كان يحمل لواء العشق بكل فخر، اليوم انهكته نيران الضغينة؛ فقد لوح لها ذات يأس بأبشع الأفعال إذا ما جمعتهم الأقدار مرةً أخرى.

كان يتصور في لهفةٍ مظلمة، كيف يمكن أن يبدو انتقامه منها. كيف يمكن أن ينظر في عينيها حينها، مُستخلصاً حقه المسلوب بين النظرات الثقيلة؛ لعله يجد فيها بريق ندمٍ تائه أو بصيص عدلٍ يُريح قلبه المثقل.

في هذا السّكون الثاقب، وجد نفسه يعود بالزمن إلى تلك الأيام الأولى لغيابها، إلى جناح الأسى والألم الذي شرعته خلفها. كانت الخيبة قد صبغت كل شيءٍ حوله، تلك الفجيعة التي حصدها بعد أن فتح لها ذُراع روحه:

:Flash Back

كان المشهد يشبه لوحة تشاؤمية؛ الأشلاء المتناثرة من الزجاج كانت تبرق ساخرة تحت شحوب النور الخافت، وكل قطعة أثاث تشهد على الانقلاب العنيف الذي اكتسح المكان بإعصار من الفوضى. كانت الأروقة تلفظ أنفاسها في تمرد، والخراب يتغلغل في كل زاوية من زوايا الدار التي كانت ذات يوم موئلاً للحب والراحة.

وفي القلب من تلك الفوضى، كان يقف عربي الذي تغير شكله بشكل يُرعب الناظرين؛ عيناه كانتا تشبهان مرآتين متوهجتين بلهيب الحقد، وثيابه محتضرةٍ على جسده في خللٍ واضح. الحقد الذي كان يأكل في روحه جعل من المكان بؤرة للضغينة فقط. تلك الجدران التي كانت حاملةً ذكرى قهقهاتهم تحولت إلى سجن لصدى أوجاعه.

اقتحم الشرفة، المدينة كانت غارقة في سبات، وضوء الليل الخافت كان يغمر العالم بامتنان. الغضب الذي كان يغلي داخله تجسد في دموع رجل محطم، تتحدى كبرياءه وتجري لتملأ ملامحه المتشنجة.

بعبرةٍ مخنوقة وهو يحتضن عنق الليل، صاح بكل ما تحمله روحه من انكسار:

"يا حقيرة، لن تفلتين بفعلتك، سأخبر الجميع أنكِ خائنة"

وها هو يفهم جيداً الآن الألم الذي أنهك شهاب من قبل، التصديق أضحى واجباً أمام سيل الأقاويل الذي كان يحيط بها. استشفّ أخيراً ذلك الإحساس بالخذلان الذي يخبرك كيف يبدو العالم من خلال عيون من أحب بصدق ولم يُبادل إلا بالجفاء.

تلاشت قوته فجلس بانهيار على الأرض الباردة، والدموع تشق طريقها على وجهه أنهاراً تؤنّبها بكل ما للحقد من دلالة.

..End Flash Back

من أعماق ذلك الشرود الثقيل الذي تلاعب بروحه، استفاق كمن ينبثق من غيهب الليل. عاد تدريجياً إلى الواقع المرير، مرتسماً على شفتيه ابتسامة محملة بكل ما في السخرية من مرارة. ها هو الرجل الذي أقسم على الانتقام من خائنة قلبه، وهو في كل يوم يبزغ كان يجدد وعده لنفسه بتلك النهاية العادلة. ومع ذلك، لم يهتز له ساكن أضلعه كانت ترتعش على وقع الحزن لا الفعل.

كان يدرك جيداً أن بمقدوره الوصول إليها، أن ينسج من خيوط الظلام طريقاً نحوها، إلا أن هناك ما يثقل كاهله بالتردد، أن يراها، أن يُحيل تلك الأفكار إلى واقع قد يتفتت تحت أقدامه. حتى سر مكانها لم يخبره لكنان، كان قد صمت عنه. يتساءل بينه وبين نفسه، لماذا يحتفظ بذلك المورد القيم ولا يكشفه؟ يصطدم بجدار الغموض الذي يفصل بين عقله وقلبه.

كل ما يمكنه الجزم به، أن النسيان ليس خياراً، ولا هو ما ينشده. في الأعماق يعلم أن نسيان الخيانة يشبه طمس الهوية، وهو ليس على استعداد أن يمسح جزءاً من تاريخ روحه.

كان غارقاً في بحر من القلق العميق، الهموم تضغط على صدره حتى بدا كأن روحه سارحة في عالم بعيد. نفس المشهد يتكرر، اختلاف وحيد في الشخص وربما في الأحداث، لكن الوجوم ذاته كان حاضراً. جلس الطبيب المتمرس خلف مكتبه، يستقر نظره على الصور الشعاعية بأمعان، تلك الصور التي تروي قصة معركة مهلكة داخل جسد غرام. استغرق الطبيب في تأمله للهالة القاتمة المحيطة بالأعضاء الحيوية، ثم وبحركة لا إرادية تنهد الطبيب، صدى زفيره حمل وزن اللحظة. أطلَق الطبيب قنابل الحقيقة بصوتٍ محمّل بحزمٍ مهني وطيف من الهمّ الإنساني متحدثاً باللغة الفرنسية:

"لا يمكنني إخفاء حقيقة الأمر عنك، فالحالة التي تمر بها السيدة غرام تستدعي القلق. بعد النجاح الذي حققتموه في عملية زرع الكلية، كان هناك من الضروريات ما يجب عليها اتباعه، الرعاية الصحية المستمرة والحذر من أي عادات قد تضر بصحتها. لسوء الحظ، التخلي عن بروتوكول العناية هذا قد فتح الباب أمام عودة المرض لينتشر بطريقة أقوى من ذي قبل."

تنهد الطبيب مرة أخرى ثم واصل:

"الكلية المزروعة كانت تمثل أملاً جديداً في حياة غرام. ولكن من دون عناية مستمرة ومتابعة دوائية صارمة تعرّضت هذه الكلية للإجهاد، وفي النهاية أدى ذلك إلى تدهور في وظائفها. والمزيد من المؤسف أن المرض قد أخذ ينتشر في أجزاء أخرى من جسدها. وهذا يتطلب منا تحركاً عاجلاً واستراتيجية علاجية شاملة للسيطرة على الوضع."

انحدرت نبرة الطبيب إلى حيز من الصمت الموحي بعد هذه الكلمات؛ إنها لحظة إدراك عندما يتلمس الإنسان جدية الموقف، وتصير عيناه مرآة تعكس حزنَ قلب مكلوم، وتستنهض النفسُ فيه قوتها للتصدي ومواصلة الرحلة مهما بدت قاحلة.

يبتلع رضا ويقه بتردد ويسأل بصوت يكاد يخفت تحت وطأة القلق:

"دكتور، كم ستكون تكلفة العلاج الكامل لغرام؟ أرجوك، أحتاج إلى أن أعرف بدقة."

الطبيب، الذي يشهد كل يوم قصصاً مشابهة، يبدي تعاطفاً واضحاً في نبرته وهو يستجمع المعلومات ويجيبه:

"أفهم مدى الضغط الذي تشعر به في الوقت الراهن. تكاليف العلاج تتفاوت بشكل كبير بناءً على العديد من العوامل، من ضمنها الأدوية الضرورية وفترات الإقامة بالمستشفى والفحوص التي نحتاج إلى إجرائها بانتظام. يمكن أن تكون التكلفة عالية، لكن نعدك أن نقدم كافة التفصيلات بشكل موضح وأن نساعدك في التحدث مع قسم الشؤون المالية هنا في المستشفى لنرى كيف يمكننا تسهيل الأمور."

تهاوت أمامه كل الجدران التي كانت تحمي ثباته. مع الضغوط الكبيرة والتحديات التي تعترض طريقه، تردد في ذهنه سؤالٌ حائر: كيف له أن يؤمن مصاريف علاج غرام، بينما هو ذاته في خضم أزمة مالية قد صنعها بيديه؟

لم تكن خسارته لأمواله واستثماراته نتيجة قدرٍ محتومٍ فحسب، بل كانت عواقب قراراته المتهورة ومراهناته الخاطئة التي رسمت طريقاً للسقوط. ولكن في أعماق قلبه كان يعلم أنه يجب أن يجد حلاً. تطارده الأسئلة الصعبة: هل يلتمس المساعدة من الأصدقاء؟ هل يتحلى بالشجاعة ليطلب العون من أفراد عائلته الذين كان قد ابتعد عنهم؟ أم يسعى وراء فرص عمل ثانية قد توفر له دخلاً إضافياً؟

وبينما الأمواج العاتية تتقاذف بزورقه المتهالك في بحر الحياة، يعتصر رضا عقله بحثاً عن مخرج يليق بهذا الاختبار القاسي. يتعين عليه أن يعتبر هذه المرحلة نقطة تحول، يستفيق بها من رقدة اللهو الطائش، ويرتقي إلى

مستوى المسؤولية الجليلة التي تنتظره. ففي نهاية المطاف تكمن في الأزمات فرصٌ خفية لكتابة فصل جديد واثق الخطو من العطاء والتضحية.

في زوايا الغرفة المعتمة حيث النور الخافت يتسرب عبر الستارة الشفافة، جلس رضا وعيناه ترنحتا في بحر من القلق، يرقب زوجته الحبيبة وهي ترقد بصمتٍ على الفراش، غارقة في أعماق نوم عابر، ولكن حتى في سكونها كانت سجايا التعب قد رسمت معالمها على جبينها الصافي. كل نَفَس يستجدي الرحمة لحالها، وكل دقة قلب في صدره تدوي بكلمة واحدة، الأمل.

ما بين لحظة وأخرى، ينحني بهدوء شديد، يزيح خصلة متمردة عن جبينها، ويصلي من قلبه بأن يجد حلاً لأزمتهم. كان الحب يتجلى في حركاته العابرة، في نظراته التي تجاوزت الشفقة إلى ارتباط يبدو وكأنه خلق منذ الأزل.

لا يمكنه أن يتحمل فكرة فقدانها.

هي التي غزت عالمه، وباتت جزءاً من روحه. كانت المعركة التي خاضها من أجلها شاهدة على عظيم تعلقه بها؛ أشهر من التضحية، أعوام من المثابرة ليبني عالمهما معاً. فكيف يسمح الآن لهذا العالم أن يتهاوى بين يديه؟

بتنهيدة عميقة يمتزج فيها الأسى بالإصرار، يمر يده بقوة على وجهه، كأنه يحاول أن يزيح الضباب الثقيل الذي لف عقله. عيناه تعلقتا بالهاتف الذي يلقي وميضاً باهتاً يظلل الغرفة، يمسك به ويتصفح الأرقام بيد ترتجف بالتردد وهو يعلم أن ما يجب فعله محفوف بالمخاطر، ولكنه يبقى الخيار الوحيد لديه.

يرفع الهاتف إلى أذنه وبصوت يزهو بالرجولة مضافاً إليها العزم، يبدأ المكالمة:

"مرحباً، مسيو جون"

ينتظر صدى الصوت الذي من شأنه أن يغير المعادلة كلها.

أغلق جون الهاتف بتؤدة تامة والتفت نحو عربي الذي راقب المحادثة بنظرات تنم عن فضول مشوب بالتوتر. أضاء وجه عربي بابتسامة محكمة، راسماً على محياه سؤالاً مبطناً:

"هل هي صفقة جديدة؟"

أطلق جون ضحكة خفيفة تشوبها رهبة الانتصارات القادمة:

"أجل، مكاسب جديدة تلوح في الأفق."

قابله عربي بابتسامة تشع بالتشويق، مُضيفاً إلى الحديث نقطة اهتمام جديدة:

"سمعت اسم رضا، من هو ذاك؟"

استلقى جون على كرسيه بهدوء يشبه سكون البحر وأجاب بنبرة تحمل وقع الجدية:

"رضا سليمان... ألا تعرفه؟ لقد كان نجماً يحترق بنيران الطموح والثقة. جمر صفقاتنا السابقة، بَرع وأبدع، لكن آخر الأخبار تشير إلى أن ضوءه قد خفت قليلاً. ربما تكون هذه الصفقة نفحة الرماد التي ستعيده إلى الاشتعال."

كلمات جون غرست في قلب عربي شرارة الانتقام ممزوجة بألم الخيانات التي جُرح بها. سراج الثأر يتوهج في عينيه إذ أدرك أن فرصة الانقضاض على خيبات الماضي قد دنت. أشاح بوجهه صوب النافذة، حيث أضاءت شفتاه بابتسامة خبيثة مترفقة بكلمات تجلد الهواء بالبرود:

"اسمع بإمعان مسيو جون، إليك ما أطمحه منك..."

توقفت الكلمات للحظة على شفاه عربي، وهو يزن إمكانات الظروف التي تتحفز لصالحه. أعاد ترتيب أفكاره كلاعب شطرنج يستعد للهجوم الحاسم، فيما طفا على وجهه ضوء المكر وهو يهمس بثقة:

"أريد منك أن تجعل هذه الصفقة بلاطاً يُساوم عليه في مزاد القدر، وليكن رضا سليمان محور هذا الزيف. قدم له الوعود، أظهره بمظهر المنقذ ثم أرمه إلى عالم الوهم حيث يذوق طعم السقوط المرير."

انكسر ضوء الغرفة على زوايا تحالف جون وعربي، مزجاً بين شبح الماضي وخفايا الآتي، وكأنما تلبدت الأقدار فوق رؤوسهم، تنتظر إشارة لتُطلق العنان لما يُحيك من مخططات. تطلع جون في عيون عربي، رائياً فيها لمعان الثأر والعزم وقال بهدوء العاصفة القادمة:

"وما لي في ذلك؟"

أطبق عربي على كلماته وحصنها بنظرة ذات مغزى، مشيراً إلى لعبة القدر التي تشتعل خلف الأستار:

"سيكون لك نصيبٌ من الشهرة والمال، وأما أنا، فسأتقاسم مع الوقت ابتسامة الفائز بدورة الانتقام."

اتسعت ابتسامة جون وتعمقت، لتكشف عن أسنان خلفها مكائد الدنيا وحلفائها.

بعد عدة أيام

في صمت القاعة الفسيحة لبيته، حيث الأثاث يتحدث بذكريات أصمت من حركة الزمان، جلس شهاب وحيداً يتأرجح بين الوهم والحقيقة. شروده لم يكن إلا مجاديف تبحر في بحر الأمنيات الزائفة، حيث ظن أن رحيلها كان زخة مطر عابرة وستعود السماء صافية كما كانت دوماً.

لكن هذه المرة كان الواقع أقسى من طقوس الغفران التي استعادت إياها على مرّ الوقت. غيابها خَلَعَ عن المنزل روح الفرح؛ ليبقى بقايا مسرح مهجور تفتقد خطواتها حتى أكثر من غرام نفسها.

نفس شهاب المُثقل امتزج بخيطان الهواء، يَنقل وحشته وشعوره بعبء الفراغ الذي خلفته نور، تلك الزهرة التي استأثرت بقدرتها على الاحتمال وكسر حصون غضبه وشكوكه.

صدى الدنيا هدأ في أذنيه؛ إلا أن صخب الواقع وعنفه انهل من جديد مع صوت جرس الباب الذي شقّ ستار التأمل. قصة مغايرة بدأت تُنسج منذ أن فُتح الباب وتلقى شهاب الورقة المصيرية من يد الشاب قائلاً برسمية:

"أستاذ شهاب..."

بإيماءة من رأسه أكد شهاب وجوده، واستمر الشاب:

"أنا مُندوب من المحكمة. السيدة نور التقي تقدمت بطلب الطلاق."

ورقة الطلاق تملكت يد شهاب كبركان حُبس لزمنٍ طويل، وبانغلاق الباب خلف الشاب تعالت صرخة غضبه المكتوم. سُرعان ما تحَوّلت الورقة إلى كرة بالية بين قبضتيه الهائجتين. وبقلب يزأر أمسك مفاتيحه وهاتفه بعجلة، ليلهب الأسفلت بعجلات من فحم.

يقرّر شهاب أن يُرجعها، أن يستدرج الطير إلى عشه مجدداً. ذلك القرار الذي أشبه بنذر اليقين الذي يهشم مخاوفه. نعم، هو من وضعها أمام خيار الفراق أو المكوث، لكن إذ زُخرفت الجدية على وجه القرار، دبت في قلبه خفقات الرعب وجسور الحاجة.

ها هو الآن يُسرع في طريق العودة، ليس كفاتح يعود بغنيمته، بل كحالم خسر سبيل أحلامه في غفلة من زمان. يعاود الخطى قُدُماً نحو تلك التي زرعت الأمان في نفسه، لعله يمنحها الوعود وينثر أقدم الطاعة، لكن بقلب ينبض بحذر طفيف يحمل وزر الحقيقة المغلفة بالأمل.

الفصل الرابع والعشرين

حين انكشف المستور، وانفرط عقد الأمل ذاك، وُجد رضا نفسه وحيداً في غرفة مكتبه في المنزل، الذي بات مسرحاً لتراجيديا عمله.

كان جالساً هناك، ذراعاه تتكئان على المكتب، وجبهته تستند على قبضة يديه المتشابكة، وكأنه يحاول أن يستجمع قواه لآخر الصدمات. الصمت المحيط به كان مطبقاً، مفعماً بثقل الخيبة وثباتها المرير. إذ باتت الأوراق المتناثرة حوله شواهد على رهان أخير خاب.

عيناه التي كانتا في الأمس ملؤهما الحيوية والنشاط، أطبقت عليهما اليوم ظلال اليأس. كان يتأمل برهة الغروب الذي اخترق نافذة مكتبه، وكأن في لمعانه الأخير تشابهاً مع موقده المهني المُخمد. بقي هناك متجمداً، غير قادر على الحركة أو حتى على إبداء الحزن أو الغضب.

ربما كان يتساءل كيف للعالم أن يواصل دورانه وأسواق المال أن تنبض بالحياة، في حين تلاشت تلك الضربات في داخل نبضه. لم يعد يسمع سوى همسات روحه المتكسرة ترجو كسرة العودة إلى وقت مضى، إلى نقطة انطلاق لم يبذل فيها آخر قرش من رصيده الباهت.

بدا تصميمه القديم كشيء بعيد المنال وأحلامه مجرد أوهام راحلة. ربما ستكون لتلك الهزيمة ذيول تصحبه حتى انتهاء حكايته؛ إذ في كل مرة سيغمض فيها عينيه سيعود به الزمن إلى لحظة السقوط، يعيشها مجدداً، باقٍ في الحسرة وجحيم الضياع.

مشى رضا بثقلٍ في أنحاء الغرف التي فَقَدَت روحها، وفي كل خطوة تسمع أصداء الأسئلة التي لا إجابة لها: "هل كان الثمن يستحق ذلك؟".

في زاوية من الغرفة، وكأن الزمن قد توقف هناك، تقبع غرام ذات العيون التي كانت كسماء صافية، باتت اليوم ضبابية ملتحفة بستر الذبول والهزال. تنفس رضا بعمق يحاول أن يستجمع شتات قواه وهو يجاهد ليكتم شجن صوته وخيبة إحساسه.

اقترب منها جالساً بجانبها يلتمس كفها النحيل بين يديه. وفي صمت محمل بكل الكلمات التي لم تُقال، تخلل نظراته إليها مزيج من الاعتذار والحنان. كان هناك شيئاً عميقاً في تلك اللحظة، شيء يتجاوز الخسارة المادية، كأنه استفهام عن قيمة الحياة ذاتها، عن إمكانية شراء الصحة والوقت بالنقود.

أدرك أن معركته مع القدر لم تكن فقط في البورصة وعالم المال، بل كانت صراعاً مع الرمال المتسربة من كف العمر ومع اللحظات التي كان يتمنى أن تدوم للأبد. ربت على يدها بأسى، يهمس لها بلسان العيون ودون كلمات، يقول لها إن كل الخسائر لا تُعادل خسارة وجودها.

وفي وسط الصمت الذي يُشبه نسيجاً يُحاك بخيوط من الألم، وبالكاد تنساب كلماته كموجة حطت على شاطئها فقط لتعود من حيث أتت:

"لقد خسرت يا غرام... خسرت كل شيء."

ضمّت غرام الصمت إليها كشخصٍ يحتضن وشاح الدفء في لحظة قارسة التجمد، فلم تقطع ذلك الهدوء بكلمة. في عينيها كل الكلام المجهز للرحلة إلى الأبدية ولكنة يخلد إلى الصمت. فواصل رضا بلهجة تحمل رجاءً مكسوراً:

"يجب عليكِ خوض العلاج، لا يمكن أن تستمري هكذا. علينا التحرّك بسرعة يا غرام."

تنهيدة غرام الخفية كانت كالريح التي تمرّ عبر الأغصان الجرداء دون أن تترك وراءها سوى صدى ألم. لكن رضا لم يستسلم لليأس بعد، فتابع بنبرة حازمة مغموسة بشيء من الأمل:

"ستعودين إلى سوريا، إلى أهلك. هم سيعتنون بعلاجك."

حين سمعت تلك الكلمات، كأن الحياة أُضيئت في عيناها المُنطفئتين. انتصبت غرام بمشقة، وانحسر اليأس في صوتها المتهدج وهو يشق طريقه من بين الأنفاس المرتجفة:

"هل أنت جاد؟ تريد مني العودة إلى أهلي؟ كيف لي أن أواجههم بعد أن هربت معك؟ هل تعلم ما قد يفعلون بي إذا حدث ذلك، عربي، كنان، أبي وأمي، ما بك يا رضا؟"

وصل الضيق إلى قلب لكنه ضبط أنفاسه المتسارعة، فكانت كلماته تحمل إصراراً يولد من بين ركام القلق:

"لن يحاولوا أذيتك يا غرام. لو كان ذلك هو نيتهم لكان قد وقع في الماضي. ستكونين بينهم وأنا سأُعيد ترتيب أوراقي هنا، لأجمع ما يمكن من الأموال وألحق بك. أنتِ مُلزمة بخوض المعركة، ومن ثم ستشعّين مجدداً في حياتي، فأنا لا يُمكنني تحمّل خسارتك. عودي إليهم الآن ريثما أُعيد النظر في بعض الأمور هنا."

الصمت تمدد بين زوايا الغرفة، مُترامياً على كل شيء، وفي عيون غرام المتعبة تُرى قررة الدمعة تخترق الهدوء، تسقط بحرارة على وسادتها. وهي تشيح بوجهها بعيداً، تحجب قصتهم المتعثرة خلف حجاب الدموع، تكتم داخلها استسلام لمصيرٍ رسمت خطوطه خارج حوزة القدرة.

وهكذا في تلك اللحظة وجدت كل المسافات تتفتح بينهما، ربما إلى يوم يجتمع فيه الشتات، أو يوم لا يطل منه اللقاء.

كانت مليكة تتأرجح على رنين أحلام الأمسيات، تستقر على أريكة الانتظار في دارهما الهادئة، وبين يديها سرٌّ يتدفق كنبع السعادة، سعادة كادت تلقي بها في أحضان السماء من شدة الفرح.

يعود عربي إلى منزله بهدوء وينثر تحيته عليها، ليستقر بجسده على الكرسي المواجه لها، دون أن تهتز شفتاه بما ينسج الحوار.

تبدو البسمة المتلألئة على ثغر مليكة وهي تتنقل بيدها عبر الفضاء لترسو بهدوء فوق يده الراكدة، وتهمس بنبرة رقيقة موشحة بالأمل:

"أخبأ لك في صميم قلبي خبراً يتفتح كالزهرة."

يدور عربي بنظراته الهادئة نحوها ويشق ظلامه ابتسامة خفيفة مجيباً:

"ما هو؟"

تتفتح زوايا ابتسامتها معلنة عن سعادة لا تتسع لها الكلمات، لتبوح بإيقاع الحب الأمومي النابض:

"سيتهادى إلى عالمنا نبض جديد، طفل سيكون بين أحضاننا بعد سبعة شهور."

تُطلق مليكة عنان فرحتها بزهو في الوقت الذي تتجمد فيه ملامح عربي للحظات، يفيق من الدهشة مبتسماً بكل هدوء، معلناً بركة القادم الجديد، ينقش على الوجود تصنع البهجة. فها هو يحقق ما أراد، إنشاء عائلة سليمة البنيان، دون أن ينبض قلبه بذاك الوجد المتوهج الذي بات مرسوماً على حافة الماضي.

يدق الباب بغضب هادر كقرع طبول الحرب، وما هي إلا لحظات حتى يُفتح باب المواجهة، ويظهر أحمد على مسرح الأحداث، يلقي بنظرة حادة محملة بالاستنكار والغضب، فيقول بصوت يخالطه ضجيج الانزعاج:

"ما بك أنت؟ ما الذي يحدث لك حتى تخبط الباب بهذه الشراسة؟"

يجتاز شهاب عتبة الدار متجاهلاً توبيخ أحمد وهو يسير نحو الصالة حيث تنعقد القصص والأحداث، توقفه كلمات أحمد المتواصلة بنبرة تتخللها نبرات اليأس:

"نور في غرفتها، إن تمكنت من أن تُقنِعها بالعودة معك فسأُقبّل رأسك. لقد غدا هذا البيت كئيباً بكمّ وجودها الثقيل، ونفورها اللاصق بجدرانه."

يدور شهاب نحو أحمد، تتقدّ عيناه باللهب وجبينه يسودّه الجدّ ويجيبه بحدة:

"وهل هو منزل أبيك حتى تشتكي من وجودها؟!"

بعد أن قذف كلماته كسهام لن تخطئ هدفها، ينقلب شهاب على عقبيه متجهاً نحو غرفتها، ليجدها جالسة على سريرها مُحتضنة ركبتيها إلى صدرها كمن يحتمي بها من العواصف، تنتصب نور مفجوعة بوطأة هذا الظهور المفاجئ، واقفة دون أن تُقدم على فعلٍ زائد.

مع كل خطوة يقترب بها منها، تتبدى جليّة معالم الحزم في محياه، وعندما يكاد يكون بمحاذاة هوائها يبرق بالسؤال:

"منذ أن تزوجتك وثمة سؤال يتراقص في ذهني، هل أنتِ مجنونة؟"

تطأطئ نور رأسها، وفي عينيها بركة أسى تخبئ وراءها بصيصاً من الصفاء وترد بهمس:

"بل عقلت، جنوني كان عندما ربطتُ عمري بك."

مرت الدهشة على محيا شهاب ليفسح مجالاً للسخرية أن تعلو في زاوية ثغره قائلاً:

"أذكر أن حياتكِ بجانبي كانت مسرحاً للجنون بالتأكيد، جنونٌ اختلط فيه الفرح بالأسى، لكنني أطعمتكِ من الأول أكثر. أتذكرين؟"

تهزّ نور رأسها موافقة وتشيح بنظرها وكأنها تستعرض شريط ذكرياتها، ثم تُلقي بكلماتها:

"لكن ما ينقص حكايتنا هو ذلك الكائن الصغير، طفل يُضيء دروب بيتنا، وأنت تأبى ذلك..."

يستل شهاب نَفَساً عميقاً، يُظهر الصبر في عينيه ويده تسبح على وجهه، ليعود ويخرج كلماته كإعلان مصيري:

"حسناً، لك ذلك، سننجب طفل، كما تشائين"

ترتهن نور في زوايا الدهشة، وتظل مقيدة بصمتها وسط بحرٍ من الأفكار الجارفة. كانت دوماً على يقين بأحادية حبها، فلن يفتح قلبه لأي امرأة بعد غرام، لكنه الآن يبدو مرآة تعكس اهتماماً، وربما حتى حباً؟ أبعد الحقيقة كانت في تصديقها الدائم بأن قلبه قاحل من حبها؟

ينفد الصبر من شهاب وينسكب على محياه علامات التعجب:

"ما بك؟ هل ستكتفين بالسكوت؟ قلت لكِ سننجب طفل."

تجيب بإطلالة مُرتجفة الأمل:

"هل حقاً سننجب طفل، حسناً متى؟"

يجيب شهاب حيث تختلط فيه الدهشة بالغضب المكبوت:

"ما بكِ أنتِ، تسألين متى! أتريديننا أن نبدأ الآن هنا في هذا المكان، سيحين موعده عندما يشاء الله"

تذوب صورة الدهشة من عيني نور مخلّفة وراءها فجر بسمة تغزلها أنامل الأمل، فتنقض عليه محتضنةً إياه وعلى ملامح وجهه ترقد بهاء ابتسامة دافئة تكاد تقول بلا كلمات "للجنون أيضاً نوعٌ يحاكي الحُب، وللحُب جنون يشبهكِ يا نور."

تُقطع خيوط اللحظات المشدودة بينهما بجرس هاتف نور الصادر كالبرق الذي يشق صفو السماء، يتقدم شهاب خطوة تسبق ترددها ليغتال الرنين بقبضته، معتقاً رقماً لم تألفه العيون. تجمدت ملامحه والدهشة تقبض على مقلتيه مُعلناً بصوته الحازم الذي تبدو فيه بقايا ثبات يتزعزع:

"أجيبي، وافتحي مكبر الصوت."

تلهث أنفاس نور تحت وطأة الصبر المتبقي، تهز رأسها من اليأس قبل أن تستجمع قواها أخيراً للرد، وتضغط على الزر كإعلان لبدء مسرحية المجهول.

"نعم، من معي؟"

من بعيد، يكاد الزمن يهمس بتعبه، لينسكب الصوت المتعب المغلف بأوجاع الدهر، تسمع نبرة خلفها كلمات متلهفة مليئة بكل ما هو محتوم ومتعب:

"نور، هذه أنا، غرام."

لحظةٌ وجيزة وتتفتح عيون نور وكأنها الفجر ينبلج، وتعتريها حالة من الصدمة كأن السماء قد هوت عليها، وشهاب إلى جانبها تهزه هو الآخر صدمته، وفجأة تسحب عبقة الدهشة أنفاسهما وكأن سرباً من الطيور الصاخبة تحلق في فضاء الغرفة.

الفصل الخامس والعشرين

كانت نور تحمل في قلبها وعياً كاملاً بثقل المسؤولية الملقاة على كاهلها، ثقل يفوق طاقتها ربما. ها هي غرام ترقد بين أروقة الوهن، جسد أنهكه المرض وعينان تائهتان في صحراء الألم، واليأس يتهددها بعد عودة المرض تطوير أشباحه في داخلها. لكن حتى في ذلك المنعطف القاسي، لم تجد نور في قلبها نبضة تخلٍ.

وإن كان العالم قد خذلها فلقد وجدت في نور تلك الروح الباسلة خِفة وسلواناً. نور، التي اختارتها من بين الكل، ثبتت قدماها على الصخر وسط الأمواج، رافضة أن تستسلم أو تتخلى.

كان رضا يجاور غرام في الطريق، غير أن الإفلاس قد غلّ على موارده، انسدّت عنده سبل العلاج، وعَدِم القدرة على استدرار عطف الزمن. لذلك تأخر في عودته.

تتذكر بأسى ردة فعل شهاب، زوجها، ذلك البحر المتلاطم من الرجولة والعزم، الذي كتم الأمواج في قلبه عندما أخبرته بقرارها في رعاية غرام. "هل تريدين أن نستقبل المرأة التي خانت أخي وطعنته في ظهره؟" كان صوته كصهيل جواد وهو يواجه الريح، تعصف به الغيرة والعزة. لكن بصيرة نور كانت بعيدة المدى، ترى ما وراء الجراح والخيانة؛ ترى إنساناً في مفترق طرق بين الحياة والموت. وبكل ما أوتيت من صبر ولين تحدثت وحاورت، وببلاغة القلب انتزعت موافقة شهاب دون أن يعلم كل الحقيقة. وردت بصوت معانق للسكون، "هي الآن لا تملك سوى ضعفها وألمها، ومن يعلم، ربما نجد في عطفنا الشفاء لجروحنا جميعاً"

استقر القرار في نهاية المطاف كبقعة ضوء في نفق طويل، غرام تأوي إلى منزل والدة نور، ذلك الملاذ السري الذي لم يكشف حتى الآن غير لسيرين وياسمين، قلبين من أقمار الوفاء التي لم تخبو في ليالي نور الحالكة. على الرغم من بعض التحفظ في تعاطي سيرين، إلا أن ضوء التعاطف كان يشق طريقه من بين ثنايا جفائها.

ولحسن الحظ أن زوج والدة نور سافر إلى شقيقته، ماجعل الوضع أكثر أماناً واستقراراً.

هكذا تضع نور خطواتها في طريق التضامن والصبر، بينما يواصل شهاب مواجهته لأشباح الغضب وميراث الألم، متسلحاً بمبادئ ذاته التي تبعثرت فجأة بين المشاعر المتضاربة.

كانت الأوردة في جسده تحترق بلهب متصاعد من تحت الرماد، وجود غرام تلك التي أقدمت على جرح أعمق من الخيانة في قلب أخيه، جعل الدم في عروقه يغلي كماء قدر على نار هادئة. لكن صوته رهين الصمت، مقموع بعبء الوعود القديمة من عربي لغرام وبوطأة الحقد الذي يملأ قلب كنان. يكمن خوف شهاب الأكبر في حماية الثلاثة: عربي الأخ الذي لا يريد له أن يكتوي بنار الانتقام مجدداً، كنان الذي يخشى أن يجرف في تيار العداوة، وغرام التي ما عاد لديها القوة لتستقبل حتى نظرة العتاب.

نور باحثة دوماً بلمساتها الناعمة ونظراتها المملوءة بالرجاء، تلح على شهاب ألا ينطق بكلمة عن عودة غرام. لقد صار الصمت عهداً بينهم، ولو أن قلبه ينبض بألف سكين، كل منها يحاول قطع هذه الأستار من الصمت، وخصوصاً لأجل أخيه الذي ما زال يسكنه جرح غرام. يمزقه التناقض؛ فهو محتار بين الصدق مع عربي وبين الدفاع عن سلامة الصمت. الآن يدرك شهاب معنى المسؤولية، شعور عربي عندما خبأ الهوية الحقيقية لرضا عند خيانة غرام.

بمرور الأيام والليالي، وجد شهاب نفسه ينضج كالثمر الذي يصل للنضج ببطء. تسرعه بدأ يذوب مع الوقت، تعلم كيف يلجم روحه الحماسية ويوجهها نحو التعقل والهدوء، يتعاطى مع الأمور بروية وتؤدة. تلك الروح التي كانت تتحدى العواصف بصدر عارٍ، اليوم تتخذ نهجاً أكثر اعتدالاً.

***

وقفت نور بصمت بالغ الكلمات أمام فراش غرام، الذي كان يزينه صفاء السكون وهدوء الأنفاس. لم تنطق، فلم يكن الكلام سوى زائد عن الحاجة، بدلاً من ذلك كانت عيناها تغرق في دموع ملؤها الحنين والأسى وتعكس ابتسامة تنبض بالاشتياق. جلست إلى جوار غرام، ملتقطة كفها برقة وهمست كأنها تخشى زعزعة هشاشة اللحظة:

"كم افتقدت الأيام التي قضيناها معاً ياغرام"

وبين أنفاس غرام المنهكة تبلورت ابتسامة خفيفة وهي ترد بصوت يكاد يكون همساً:

"وأنا كذلك، يا نور قلبي."

"هل سيعود رضا اليوم؟"

سألت نور، وكانت عيناها تبحثان عن أمل يضيء ملامح غرام.

بإيماءة ملؤها التأكيد، أجابت غرام وفي صوتها أمل واهتزاز:

"نعم، سيأتي."

تهفو نور بعمق وتعلن عن خطتها بالإحاطة والعناية:

"يجب أن أخبر شهاب بذلك، ليجلبه من المطار."

رفضت قائلة بنعومة:

"لن يكون ذلك ضرورياً، رضا يعرف الطريق جيداً."

"كيف تشعرين اليوم؟"

تواصل نور بحنو وتلهف.

غرام، على الرغم من الألم، تهدي الطمأنينة وتجيب:

"شعوري أفضل اليوم، لا تقلقي."

في هذه الأثناء، يطرق شهاب الباب طرقاً خفيفاً ثم يدلف إلى الغرفة بتؤدة، يسأل بصوت معتّق بالرأفة:

"ما أخبارك اليوم؟"

تجيبه غرام بنفس المودّة:

"أنا بخير، الحمد لله."

يعود الحوار إلى نور التي تؤكد لشهاب:

"سيأتي رضا اليوم."

وبنبرة هادئة وعميقة يجيب شهاب:

"ذلك جيد، من المهم أن يكون بجانبها في مثل هذه الأوقات."

ويتبادل الاثنان النظرات وتنطق غرام برغبة الاستقلال:

"قال لي إنه قد جهّز المال، وسيبقى معي حتى أتعافى."

شهاب يجيب بكلمات مثقلة بالهدوء:

"أخبرتك مراراً، لا داعي للقلق بشأن النفقات."

غرام حاملة كرامتها كمشعل ترد بقوة:

"لا، لا يمكنني قبول ذلك، وكل شيء تم دفعه سيعود إليكما."

ملء الصمت الغرفة مجدداً، متنهداً شهاب، لحظات بعد ذلك يعتذر ويغادر الغرفة بينما تلتفت نور نحو ظهره مستوقفتة إياه بصوتٍ شجي:

"شهاب..."

يستدير شهاب إليها، فيما زفت إليه نور البشرى:

"لدي خبر لك"

يومأ لها لتقول:

"أنا حامل"

كأنما هبّت رياحٌ باردة على قلب شهاب، فبهتت ملامحه للحظات قبل أن يفيق قائلاً:

"جيد، مبروك."

ويتشعب الحديث لثوانٍ قبل أن ترسم الإدراك على وجهه حقيقة جلية، يستدرك معبراً عن مشاعره:

"حقاً، حامل؟!."

ثم يتقدم ويضمها الى صدره، كان الحذر ينخره، لكن نور تعرف الصمت قبل النطق به، وأكثر من ذلك تعرف الإيمان الذي يمكن أن يحيل الخوف إلى ركن منسي ويجعل للابتسام مكاناً على الشفاه التي تنتظر بصبر العمر.

في هذا المساء الذي غلفه وشاح الإرهاق، عاد كنان إلى منزله حيث داعبت عيناه لمحة من طفلتيه تتابعان بشغف ألوان الشاشة الصاخبة في الصالة. مال نحو المطبخ يقصد جوف هذا الملاذ الأليف حين أوقفته خطوة مكتومة؛ سمع يصل إليه كلمات تتأرجح مابين الهمس والصمت، وفيها تردد اسمٌ يوقظ بها ذاكرته: غرام.

"أعلم يا نور، و كلي يقين أن قلبي بريء من العتب تجاه غرام، لكنني لا أستطيع المجيء إليكم اليوم."

صوت سيرين وقع كرعد خفيف في خاطره.

اكتنف الصمت محادثتها لبرهة قبل أن تضيف:

"وما يهمني إن جاء ذلك الذي يدعى رضا؟ غير معنية أنا بهذا اللقاء. هو أتى لينال صحبة زوجته لا أكثر، وليس من الضروري أن أشارك."

تمتمت سيرين قائلة بنفس راقية من الإعياء:

"قدمي اعتذاري لغرام بالنيابة عني وانقلي لها تحياتي، لا تتسع لي الظروف للحضور، كنان سيعود بعد قليل وقد تضاعفت استفساراته حول زياراتي المتكررة إليك وإلى والدتك، لا أريد منه أن ينتبه لشيء أو يدرك عودة غرام إلى البلاد."

تهيج عواصف الأهوال في وجه كنان، عيناه تتسعان بقدر ما تموج به من حقد تلو التجسس على كلمات سيرين. يداه تخترقها نبضة غضب، فتمتد إلى خصلات شعره يبعثرها قبل أن يتبع ذلك باندفاع يقتاده نحو غرفته. كان رد فعله متسرع ومعه سلاحه، يغادر البيت برفقة قرقعة الباب التي تصم الأذن، تاركاً خلفه صدى أسئلة بلا جواب.

استفز قرع الباب جوانح سيرين لتعتقد بوصول زوجها:

"حسناً حسناً يا نور، سأتصل بك لاحقاً. يبدو أن كنان قد عاد. ألو؟ ألو؟ يا نور..."

لكن الخط سرعان ما سكن في حضن الصمت.

سيرين تُسكن زفيرها المضطرب وتتجه نحو باقي الغرف؛ تندهش لفقدان أثر كنان الذي كانت للتو تحسب أن ظله قد ملأ الفراغات. الشقة تفتح أروقتها الصامتة مُعلنةٍ غيابه الغامض.

"هل حاولت إحداكما فتح الباب؟"

توجه سؤالها لفتاتيها وهي تتلقى الجواب من ريم التي قالت بطفولية بريئة:

"بابا جاء ثم غادر مرة أخرى."

قطعة القلق تهوي بثقل وسيرين تبتلع ريقها، مكتومة الأنفاس، قلبها يهوي سقوطاً مدوياً في عمق الخوف، تتلهف أناملها بالهاتف وتنقر رقم كنان آملةً أصداء استجابته، لكن صمتاً ميتاً يتردد في أذنها. تتجه إلى نور، لا رد، ثم إلى ياسمين وشهاب، وكل مرة يزداد نبضها سرعةً ويتسع حدقتاها نافذتين على الريب.

ترتسم علامات الاستفهام على محياها وتزدحم في صدرها، فتزدرد الخوف وتستقر في مكانها، ولكن قلبها ممتلئ بالأهوال والتساؤلات. نور التي لم تجب وكذلك ياسمين وشهاب، الجميع في غيبوبة الصمت المفاجئة. مما يجعل أنفاس سيرين تتصاعد أرقاً واضطراباً؛ فتعيش لحظة مرتابة متأرجحةً بين الفزع والترقب.

بينما تصدح إطارات السيارة بصوت قوي، يعم الهواء صريرٌ قويّ بتوقفٍ مفاجئ، ينفتح باب السيارة على مصرعيه ويتهيأ كنان مقيداً بالغضب الشديد، يتوثب خارجاً وهو يمسك بمسدسه اللامع، عيناه تستعران بوهج الرغبة في الانتقام. وبالكاد تهدأ أنفاسه المتسارعة حتى يلتقي برضا الذي يستل حقيبته من صندوق التاكسي ويسلّم السائق أجرته أمام منزل والدة نور. ما هي إلا لحظات حتى تزداد الفجوة بين رضا وكنان بانطلاق التاكسي، ليردف كنان بصوت يشبه الرعد القادم:

"رضا!"

ينقلب رضا مستقبلاً وجهه نحو كنان، ليجده يقف أمامه، مزيج من الذهول والخوف يعصف بداخله. يرى في عيني كنان وميضاً متقداً كوميض الشهب، يتأهب مسدسه في اتجاهه.

"أتيت إلى نهايتك بقدميك" يقول كنان وهو يخطو بتؤدة نحو رضا.

"منذ زمن أسر الانتقام خواطري منك، ومن تلك التي عجزت عن حماية شرفنا."

يسري أسىً عبر ملامح رضا وهو يغمض عينيه متأهباً لما هو آت. يحاول الكلام لكن كنان يقاطعه بصخب:

"غزوت عواطفها وأغويتها لتهرب معك، وهي من كانت تحت ظل رجل قدّم الدنيا لأجل ابتسامتها، تجرأتَ وتبعتك تاركةً وراءها عصفاً من ذكريات الألم التي ألمّت بنا جميعاً. والآن قد دقت ساعة القصاص، أنت وحدك أولى قطرات المعاناة التي سأرشفها، ومن ثم ستتبعك حتماً غرام."

انطلقت رصاصة غادرة من مسدس كنان لتستقر في صدر رضا الذي توسعت حدقتي عينيه بدمامة الصدمة، قبل أن يهوي على الأرض، وكأن الأرض قد فُتحت أحضانها لتلقي الروح الجريحة.

قطع شهاب مساره عابراً الزمن والمكان، فجأة تخترق أذنيه مزامير النجاة، سيارة الإسعاف التي وصلت لا لنجدته بل لغرام التي داهمها المرض لتقبض جسدها بعنف. وقف وقَدَماه ترفضان الحركة والدهشة ترسم أثراً جليّاً على ملامحه.

نور وياسمين، وكأنهما تلقيا إشارة قدرية، هرعتا إلى خارج الدار، أصوات العيار الناري الوحيد قد استوقف قلبيهما، ومن ثمة صرختا بأعلى حناجرهما، تمزق صمت الحي القديم.

الصرخات ترتفع في الشارع، اختلطت خطوات الجيران مع نبرات قلقهم، وبينما شرفات المنازل تتحول إلى مدرجات الحدث، رجال الإسعاف ما كانوا ليضيعوا لحظة واحدة، رفعوا رضا الذي لا يزال يتنفس بحرص بالغ، وأودعوه في مركبة الحياة.

غرام، التي تخرج إلى النور محمولة على أيدي الرأفة. وكنان ذلك الرجل المهموم، لم يفكر يوماً أن طلقة من يده ستقوده إلى هذا المشهد المروع. تجحظ عيناه عند رؤيته غرام بهذه الهيئة، ثم يغلقهما بقوة، يعصرهما كأنما يحاول أن يعصر الألم المتغلغل في ذاكرته.

الفصل الأخير

كانت الأيام الفائتة أشبه بتيار جارف حمل معه معاناة وألم لا يُحتمل. أرواح جريحة وقلوب مفعمة بالأسى تتماسك أمام رياح المحنة العاتية. وكان والدا غرام يقفان كصخرتين تحت زخات الصدمة التي ضربت بلا هوادة، متخذة أنفاسهما رهينةً أمام حقيقة غرام الجلية التي بُعثرت في كل جانب من جوانب حياتهما.

تكشفت معالم الواقع المرير مع رؤية غرام تُنقل مُسرعة نحو أروقة المستشفى خاضعة لقيود الغيبوبة. رضا الذي طالته يد القدر برصاصة، أُلقي به في عمق العناية، يتحدى في صمت حدود الموت والبقاء. وكنان صلة الواقعة، انهارت عتبات أيامه خلف القضبان وألهب الخبر أحشاء سيرين ووالدته بلا رحمة. كانت سيرين مغمورة بذهولٍ حاولت فهم عمق الغضب الذي سكن قلب شريك حياتها، بينما والدة كنان غرقت في بحر من الدموع لابنتها المأسورة في غيبوبةٍ وابنها المتهم بالقتل.

فُتحت بوابة الهم لأنس الذي طوقته سكرات الخبر المذهل، كانت قدماه تقودانه بحثاً عن الأمل في ردهات المستشفى، حيث كانت الفجيعة بما ارتكبه كنان تنتظره. لم تسلم ياسمين من أمواج غضبه، تلاه شهاب ونور وسيرين في توالٍ من الملامة، لكنَّ أي عتاب تضاءل أمام قسوة ما نثرته الظروف على أرجاء حياتهم.

وعربي، المغمور بأعباء العمل، تحول بلمح البصر إلى زوبعة من الهواجس عند سماع الخبر المفجع. كانت أقدامه تنقله عبر أميال القلق والمخاوف ليصل إلى حيث غرام، ليقف متحفزاً على عتبات غرفة الإنعاش، وعيناه شاخصتان نحو ملامحها التي تلاشت زهوتها وبهاءها بفعل مرضها العتيد. وصدره يحترق بلهيب الأسى وينتفض بقسوة الواقع الذي ألمّ بها.

عندما وقف على عتبة الغرفة البيضاء، التي أطبقت روحها بصمت الغيبوبة، وجدت عيناه نفسهما في مواجهة مباشرة مع الفراغ الذي كان يأكل من أطراف روح غرام. لم تكن زوجة تنتظر منه عهوداً، بل كانت تلك الروح المعلقة على أطراف أنفاسه، التي تتسرب بهدوء خلف الأقنعة الأوكسجينية وأنابيب الإنعاش. وقف على مقربة من سريرها، يضبط نبضات قلبه التي بدت كأنها تُترجم كل شريط الذكريات المشتركة بكل حلوها ومرها.

عيناه التي باتتا مستودعاً للدموع الحبيسة، كانتا تتطلعان إليها وكأنها شعاعه الذي بدأ يخفت شيئاً فشيئاً. يعلم في قرارة نفسه أن لا وعود تستطيع إحياء ما انطفأ من شمعة الأمل، لكن الدعاء المتدفق من شفتيه لم ينقطع عنها. كانت هناك لحظات يغمر فيها الشك كيانه، يشعر بثقل الدهر على كتفيه، كيف لا وهو يرى النور يتلاشى من العينين اللتين كانتا دوماً مصدر إلهام له ولا يستطيع أن يفعل شيئاً لمنع ذلك الظلام الذي يهدد بابتلاعهما.

**

في زاوية الغرفة البيضاء، حيث تطغى على جدرانها صرخات الصمت، جلس ممسكاً بالأسى، ممسكاً بيدٍ كانت ذات يوم سبب زمجرة عواصفه الداخلية. هي ذات اليدين اللتين زرعتا في صحراء روحه شوك الغدر. الآن، وقد اكتست عظامها بالهشاشة يتأملها بعيون دامعة، ليست غزيرة لكنها كانت كفيلة بأن تغسل الحقد القديم من قلبه.

وفي ظلّ تلك الغرفة المعطرة بعبق الألم، حيث الأجهزة تنبض بدلاً من القلوب المكلومة، همس بصوت يكاد يخفت أمام جبروت الواقع:

"كنت أملأ ليالي بالعد التنازلي للقاء اعتقدت فيه أنني سأحقق فيه انتصاراً صارخاً؛ وعود مظلمة أطلقتها في عزلة قلبي. ولكن ها هو حقدي يتحول إلى هباء، وتلك الوعود تتبخر أمام نسمات أنفاسك الهادئة. في اللحظة التي غمرت فيها المستشفى بندمي الخانق، لازمني إدراك مفاجئ بأنني كنت كالأعمى بين خطواتي المتهورة. لم أكن أعلم بأن رضا الذي بت خصمه الشرس، قد ضحى بالكثير محاولاً تأمين علاجك، كل دهاءي وغضبي أُطفئ كشمعة في وجه الحقيقة التي أغفلتها. ندمي على كل لحظة أفسدتها يُثقل كاهلي، فلو أنني كنت أدرك منذ البداية ما كان رضا يُقدم عليه من أجلك، لعملت جاهداً بجانبه بدلاً من محاربته.

لو كنت أعلم بأن هذه الساعات القاتمة ستغدو جزءاً من ماضيك، لما تجرأتُ حتى على تخيل دقيقة من الكراهية. الكلمات التي خطها غضبي كانت وهماً إلى أن أدركتُ أن مرارة غيابك كانت أثقل بكثير. كل ما أتمناه الآن هو أن تعودي للحياة مرة أخرى، ليس لأجلي، ولكن لأجل ضحكة كنت أسمعها في قلبي قبل أن يسود الصمت."

وبهذه اللحظة كتب الخالق أن تتوقف دورة الحياة، انحنى جهاز مراقبة القلب لإرادة السماء، معلناً بصفيره المديد سكون الحياة النابض في جسدها. وعلى الفور امتزجت نظرات عربي المذهولة بتسارع أنفاسه المثقلة، عينان شاخصتان تحملق في فراغ الواقع المرير.

بينما دب الهلع في أروقة العيادة واندفع الأطباء على أقدام الخوف والأمل المهزوز، واجه عربي كل ذلك بنظرة شاردة، غائب عن واقع مفاجئ، جرفه الحاضرون إلى خارج الغرفة حيث التقى بأعين الأهل المحتشدة بالدموع، والوجوه المصطبغة بلون الأسى وأصوات البكاء التي لازمت مشهد الانتظار.

ظل الجميع يعدون الثواني المتمادية، كأنها أوتاد ثقيلة تغرس في أرض الانتظار، حتى مشى الطبيب المختص تحت وطأة الخبر الجلل ذاك، حيث ارتسم على وجهه الجدية والتعاطف المقرون بمسؤولية نقل الحقيقة قائلاً:

"البقاء لله"

عندها بدأت النسوة يرتفع صوت بكائهن كموج يعصف بكل شيء في طريقه، وعلى الجانب الآخر رجال تملأ وجوههم دهشة الفاجعة وتتساقط دموعهم كقطرات مطر حزينة. وأم غرام، تنهار تحت وطأة الصدمة، في حين يجلس الأب في صمت العاجزين، دموع الأبوة تحفر أودية في وجنتيه.

وسط هذا العناق الدرامي للألم، بقي عربي غارقاً في الذهول، كأنه مسافر محكوم عليه برحلة في بحر النكران، يرجو الموج أن يلقيه على شاطئ اليقظة.

لقد راودته رؤى لحياتهما معاً، الإفاقة المنتظرة كل صباح، وصوتها المتناغم مع شروق الشمس، الفطور المشترك حيث تتقاسم الملح والضحكات، والعمل الذي أصبح متروساً بالحماس عندما يكون العودة إليها بانتظاره. يومه كان يرقص بين يديها، حيث ترسم ضحكاتها وابتساماتها أبجدية سعادته.

كل ما يتمنى هو الاستيقاظ من هذه الكوابيس، أن يفتح عينيه على واقع يضمها مجدداً، يضم نبضات قلبها وروحها الجميلة. يتوسل في صمت أن يكون هذا محض سراب، ويصحو ليجد واقعاً حياً يعيد له أنفاسه المفقودة، لا شيء غير هذا.

الجدران الباردة التي تحجب عن كنان ضوء الشمس لا تستطيع أن تقمع دفء الأمل الذي يشع من زيارة سيرين، رفيقة دربه التي تبرق عيناها بدمعة صامتة، تخفي وراءها بحراً من الأخبار المؤلمة.

كان السجن قد أضحى لكنان عالماً موازياً، يطوي بين جدرانه أصداء حياةٍ بائدة. ولكن مجيء سيرين كان يعني له نافذةً تطل على ما وراء تلك الجدران المحيطة به. وما إن استقرت عينا كنان في عيني سيرين حتى بدأت شفتاها ترتجفان، تتسلل الكلمات من بينهما وكأنها تحمل وزن العالم.

ترقرقت الدموع في عيني سيرين وبللت وجنتيها اللتين لطالما كانتا مأوى لابتسامة لم تعد تجرؤ على البروز قائلة:

"هناك خبر يجب أن تعرفه..."

بتوتر بالغ بلع كنان ريقه المرير وتشبث بظلال القوة المتسربة منه، ظناً بأسوأ الاحتمالات، فارتجل بصوت متحشرج:

"هل... هل رضا مات؟ هل سأظل حبيس هذه الجدران إلى الأبد؟"

انعقدت نظرات سيرين بكتلة من المرارة، وهي تدرك ثقل الحقيقة التي كانت على وشك إفشائها.

"بل غرام," قالت بهمس يخترق الصمت.

تسمرت نظرات كنان عليها، وكأن الواقع فقد إحكامه على مداركه وبنبرة تائهة وتلقائية خرجت الكلمات:

"ماذا تقولين؟"

عادت سيرين لتبلع ريقها، محاولة تجميع شتات نفسها وهي تمسح دمعة سلكت طريقها على خدها.

"غرام... توفيت. حين نُقلت إلى المستشفى، دخلت في غيبوبة ولم تفق منها.. وفي الأمس توفيت، لقد... لقد فتك بها المرض."

احتج كنان بنظراته التي جحظت بالاستنكار، كمن يحرك رأسه بلا وعي، في محاولة منه لدفع الحقيقة الوخيمة:

"غرام، أختي... كلا، ما هذا الذي تقولينه؟ لا! لا يا سيرين، أخبريني بغير ذلك."

ظل الألم يكتم صوتها وسرعان ما خفضت رأسها الثقيل لتهمس:

"اليوم جنازتها..."

تكلس كنان لوهلة، أفلتت الأصوات حوله وخفتت حتى كادت تسقط في فخ الصمت. شريط ذكرياته مع غرام، ذلك الربيع الذي كان يضحك بعذوبة في وجه خريف الحياة، تدحرج أمام عينيه معلناً النهاية. لم يصدق كيف أن الحقد الذي كان يسعى ليكون وقوداً لثأره تحول إلى رفيق لندمه. أيقن أنه كان يرنو لمعاقبة غرام، لكن لم يكن ضمن حساباته أن تسلم الروح بفعل ذاك الحسرة.

"لم أعلم... أن غضبي قد يُمضيني إلى نقطة اللاعودة. كان موقفي من هروب غرام يشتت أوصالي ولكن، الآن... أي زفير في العالم لن يكفي لأبكيها به."

بتعاطف تنسمت عبر الأسى، مدت يديها المرتعشتين وأمسكت بيديه وأضافت برقة تشبه النسيم:

"هذه إرادة الخالق، ادع لها بالرحمة يا حبيبي..."

أومأ كنان برأسه المثقل بالوجع، وامتلأت عيناه بدمع لم يعد قادراً على كبحه، معترفاً بواقعه المرير دون أن ينطق. غاص في صمت حزين وألم نفسي مدوي، وكأن قلبه أصبح سفينة تائهة في بحر من الذكريات الموجعة. وعلى الرغم من الشرخ الذي تركته وفاة غرام في روحه، أدرك كنان أن صعيد الفقد قد دُك دون رحمة، وأنه لا مناص من المضي قدماً على أنقاض الأمس.

تجمعت بعينيه سحابات من الأسى، كقطرات المطر الدافئة في يوم ربيعي شاحب. ثم أطلق زفرة عميقة، كأنها استدعاء للصبر وتحية أخيرة لأخت لن يعاود لقاؤها في هذه الحياة.

الخاتمة

بعد سبعة أشهر، في أعتاب النهار، اقتحم الهدوء المعتاد شهاب، حيث وجد نور تكتنفها ألام القلق. بيد أن قسمات وجهها أفصحت عن أوجاع لا تحتمل. حاول قدر المستطاع الثبات أمام تماوجها، فاقترب بهدوء وامتزجت كلماته بنفحة دفء:

"ما بكِ، نور؟"

بينما تلتف يداها حول ظهرها، ترد نور بصوتٍ مرتعش:

"لا أعلم... أشعر أنني سألد."

تعلو نظرات الاستنكار جبين شهابزوتصبح عيناه عريناً للدهشة. يتسرب الامتعاض إلى قسمات وجهه، فيقول محاولاً ضبط صوته:

"ستلدين؟ نور أنتِ لم تبلغي الشهر الثامن بعد"

إلا أن صرخة نور تقطع حبل تفكيره، الألم يكبر داخلها كأمواج عاصفة لا ترحم:

"وما أدراك أنت؟!" تحاول بكلماتها المصحوبة بالألم أن تستنهض فطنته.

"قلت لكِ سألد، خذني إلى المستشفى!"

وقف شهاب منفصلاً للحظات عن الواقع، متخبطاً بين نداءات نور وحيرته الخاصة. هزّ رأسه في يأس وهو يتجه نحو المطبخ لعله يجد به مشروباً يهدئ من روعها:

"ربما معدتك متشنجة... سأعد لكِ شيء ساخن لتهدئي."

يخطو خطوتين فقط قبل أن تعترضه صرخة نور مجدداً:

"أيها الأحمق، خذني إلى المستشفى!"

يبتلع شهاب ريقه ويلتقط الحقيقة من ألمها ويقترب منها مرة أخرى مسلحاً بالعزم قائلاً:

"يعني... أنتِ تلدين حقاً؟ حسناً..."

يشتعل التوتر في صدره، يتحول إلى كائن مشحون بعدم اليقين، كلماته تتبعثر أمام عيني نور التي تسابق الزمن في ألمها. يحملها بأذرع تفتقد الاستقرار محاولاً إسكات صوت الخوف الذي يتمتم به:

"أخبرتكِ أني لا أريد أطفال... كن معنا يا رب."

لحظةً تلو الأخرى، تحول شهاب رويداً رويداً إلى رفيق المحنة، فياضاً بالدعم الصامت لنور التي باتت تسلمه أثقل الأعباء. بحركاتٍ باتت محسوبة على الرغم من توتره المكتوم، حملها بأسلوبٍ يمزج بين الفزع والحنان، إذ عكست ملامحه تلك الحالة التي تقف على حافة الواقع الجديد. أجلسها برفق داخل السيارة حيث صاحبتهما خفقات قلبه المضطربة مع كل دقة تقترب بهم أكثر من المستشفى.

كان النهار يبدو هادئاً من الخارج، لكن صدى صرخات نور وهمساتها المتألمة إكتسح الفضاء المحيط كنذير عاصفة قادمة. بينما هي تتنفس بعمق، يتخلل الهواء رائحة القلق المنبعثة من بين ثنايا السيارة، متناغماً مع موسيقى الحياة العابرة خارج النوافذ.

وفي هذا الهرج المرتبك من شهاب، يسري التمسك بخيط الأمل والدعاء الذي قد ينسج في النهايات المتوقعة، نسيجاً من المفاجآت التي تحتفظ بها الحياة.

حينما تنشر السماء سحائب الأمل من جديد، تشرق اللحظات بالتفاؤل مهما كان مآل الحزن. وقفت سيرين بالقرب من ذلك الجدار الأسمنتي الذي حجب عنها كنان لأشهر، وأنس إلى جانبها كخيمة الصبر ينتظران قدوم الحرية لتطوق شقيقه بأذرعها. كانت سيرين تنسج من خيوط الأمل عباءة ستلتحف بها كنان فور خروجه، ذلك الأمل الذي لم يبارح خافقها رغم رياح الشك القاسية.

لم تكن سيرين لتصدق أن اليوم الذي طالما نسجت خيوطه في أحلامها قد دنا الآن؛ يوم عودة كنان. الدقائق تبدو كأنها ساعات، ولكنها تعلم مع كل دقة قلب أنها على وشك اللقاء.

محامي كنان، الشخص الذي خاض معركة العدالة، توصل إلى تخفيف حكم سجنه بفضل كفاحاته وببراعة استنطق الظروف لصالح كنان، جنباً إلى جنب مع الغرامات المالية. خاصة أن شهادة رضا أتت لصالح كنان، فلم يتقدم بشهادة ضده ولم يطمح للعبث بميزان العدل، إذ دفنت الظروف التي أحاطت بالواقعة لدغات المعركة في تراب النسيان، لكنه بقي في ظلال ماضٍ أسدل غرام السدول الأخيرة على فصوله.

رضا، الذي تقلبت به الأقدار ما بين أروقة المستشفيات ومحاريب المعاناة، قرر العودة لفرنسا، لكنه قرر أيضاً ليعود لنفسه بعيداً عن صخب العالم. فبعد رحيل غرام، الحب الذي أشعل قلبه وأخمده لم يعد هناك ما يربطه بأرض الشرق التي علّمته الحب ووخزته بالفقد.

وها هو كنان يبزغ من تلك الأسوار كشمسٍ تشرق بعد طول غياب، معتمراً قبعة الصبر غير الصادقة. كانت ابتسامته تلك التي فترت من نضال الغياب تبدأ في استعادة حقها على شفتيه. وهو يحمل حقيبة تحكي قصص الأيام الرمادية. رأته سيرين وخطت نحوه بخطى لها وقع الشوق، فهرعت إلى عناقه تعتصره بكل ما تيسّر من دفء قلبها.

"حمداً لله على سلامتك" همست سيرين بنبرة دافئة تحمل في طياتها تاريخاً من الانتظار.

كنان يحرك رأسه تأييداً غير منطوق، فلا تبوح الكلمات بوجود الأحاسيس الأعمق. يتقدم أنس الشقيق الذي لا يخبو، يعانقه بابتسامة تطمس أثر أحزان السنين.

"الجميع في انتظارك، والفتيات أيضاً، ريم ورنيم اشتقن إليك كثيراً"

تقول سيرين بصوت رفرفت به البهجة.

يرد كنان بصوت تهادى فيه الشجن:

"وأنا اشتقت لكم كثيراً."

"هيا اركب"

تقترح سيرين بنبرات متفائلة.

لكن كنان يدعو بصوت واتر:

"أولاً أريد أن أزور قبر غرام."

تلك الكلمات رسمت على وجه سيرين وأنس ابتسامة شاحبة بطعم الحزن، فانحنت رؤوسهم في تسليم لحق كنان في وداع من حجزت جزءاً من روحه.

بقلب راضٍ بمشيئة القدر، أقفل الثلاثة أبواب السيارة خلفهم وتحركوا صوب تلك الأرض التي تستلقي عليها غرام في صمتها الأبدي.

يقف عربي هناك، صامتاً كأنه يمثل تمثالاً للحزن والحنين، واجماً أمام قبر غرام. النسيم البارد يلاعب خصلات شعره برفق، لكن قلبه يشعر بثقل لا تستطيع الريح مداعبته أو رفعه.

يُحدق بعيونٍ غائرة نحو الحجر الذي يحمل اسمها وتواريخ رحلتها القصيرة بين ضفتي الحياة والممات. الصمت يلفه كغطاء، لكن العيون المتعطشة لروحها التي غادرته تسرد الكثير. باتت حدائق ذاكرته تختزل في كل بتلة تحكي حكاية تزدحم بالشوق.

تخونه أنفاسه قليلاً كلما حاول استحضار صوتها، أو ضحكتها التي كانت تشع بالأمل يوماً ما. تستقر يده على الحجر البارد، كأنه يحاول البحث عن دفء من رحيلها في البرد الذي يسكن تحت الأرض.

يعلم عربي بأن الحياة مضت، وأن الزمن يأبى إلا أن يعصر المزيد من الدقائق والساعات، لكن هنا وقف الزمان ليرثي معه فقدان غرام.

بخطى تحمل ثقل الفقدان وطول الغياب، يقترب كنان من قبر غرام أخته الراحلة. خروجه من السجن لم يبدل في قلبه مكانتها ولا ذكراها الحية التي تجمدت زمناً في خياله. تحاوطه سيرين وأنس بنظراتهما المفعمة بالتفهم والتعاطف، تلك النظرات التي كان قد افتقدها في زنزانته الصامتة.

يقف كنان أمام القبر والنسيم اللطيف الذي يداعب أوراق الأشجار يُذكره بالأيام التي كانت تلعب فيها غرام دور الأخت الصغرى والصديقة. الحرية التي يشعر بها الآن مغمورة بأسى الخسارة، إذ لم يعد بإمكانه أن يشاركها فرحته، أو يتلقى منها تلك الابتسامة التي كانت تجلي هموم يومه.

عربي يفسح المجال لـ كنان ليقف بجانبه. يمدون أيديهم في تواضع وتتحد أصواتهم في سكون ليقرأوا الفاتحة، الدعاء الذي يجمع قلوبهم في لحظة إيمان بالعزاء والرحمة لروح غرام. كل كلمة تصعد مع النسيم عالياً.

تهمس شفاه كنان بالدعاء، ويحاول أن يتجاوز شعور الذنب الذي لازمه لكونه لم يكن هنا عندما احتاجته. لم يعد بإمكانه تغيير الماضي، لكنه الآن يقف هنا يكرم ذاكرتها كأخ محزون ليقول:

"ستبقين معنا، في كل استدارةٍ للحياة، في كل همسةٍ للريح، وفي كل نظرةٍ إلى النجوم"

يخرجون من المقبرة بصمت وعينان عربي تنظر لقبر غرام وهو يعلم أنها ستظل نقطة ثابتة في الزمن، ذكرى تجسّد عبر تناقضاتها طيف واسع من المشاعر البشرية.

يخترق صوت الرنين الهدوء الذي يكتنف المقبرة، يتفاجأ عربي بالمكالمة وهو يتابع نظرات الحضور المعنية. يجيب بسرعة وعلى وجهه ترتسم علامات القلق. عندما يسمع صوت مليكة المتألم وهي تعبر عن أوجاع الولادة، تنقلب ملامحه فجأة لتعكس خليطاً من التوتر والفرح.

"ماذا حدث" تسأله سيرين بقلق ليبتسم على غير العادة في وسط ظروف الترقب والفقد مجيباً:

"ستأتي ولية العهد"

دون تردد يتحول الجمود إلى حراك مفاجئ، ويركض عربي بأقصى سرعته، يخترق الزمن والمسافة التي تفصله عن مليكة، آملاً أن يحين وصوله في اللحظة الحاسمة. ورهن كل خطوة يخطوها، تتعالى إيقاعات الحياة وتلاحقه كأنها تهمس بداية فصل جديد في حياتهما.

كنان والآخرون يشاهدونه وهو يبتعد، ويتبادلون نظرات ممزوجة بالدهشة والإعجاب، وترتسم على وجوههم ابتسامات تعكس المشاركة في هذه اللحظة العائلية الغنية بالأحاسيس الفياضة. يقفون للحظة، ثم يتبعون عربي بخطى متسارعة ليكونوا بجانبه في هذا الحدث العظيم، داعمين إياه بوجودهم ومحبتهم.

بعد ساعات من الانتظار وبين جدران غرفة ملؤها السكون والهمس الخافت، كان عربي يجلس إلى جانب فراش مليكة وهو يتأمل بإعجاب وجه فتاته الصغيرة. ثيابها الزهرية التي تزاوجت مع بياض بشرتها الناعم، كانت تشع رقة وجمالاً. خيوط الشمس المتسللة من نافذة الغرفة ترسم على وجهها ظلالاً من ضوء وحياة، في حين كان إصبع مليكة يستريح داخل قبضة ابنتها الصغيرة. تنظر مليكة إلى عربي وهي تبتسم بعينين تلمعان بالفرح الممزوج بالإرهاق.

وفي تلك اللحظة، تتجمع الألفة حولهما؛ سيرين، وأنس، وكنان يلتفون حول عربي، مهنئين ونظراتهم تحكي قصص الدهشة والبهجة. وفي خلفية المشهد يقفان والدي عربي، تعلو محياهما ابتسامة واسعة برؤية حفيدتهما الجديدة، فقد أسرعوا إليه ما إن بلغهم النبأ السار.

وبصوت خافت يحمل ألق الحياة التي خبرت للتو طعم الولادة الجديد، همست مليكة:

"انظر ما أجملها".

استقبل عربي الكلمات بابتسامة وادعة، وبدأ يداعب وجنتي ابنته، حين انفتح الباب من شهاب القادم بإشراقة وجه كبيرة، يحتضن كنان في تحية ويتحمد على سلامته، ويتقدم لينحني بخفة نحو الطفلة ممازحاً:

"ما أجملها، إنها تشبهني."

أصوات الضحكات المتبادلة ملأت الغرفة، فينظر له عربي باستنكار قائلاً:

"هل أتيت لتبارك، أم لتخبرني أنها تشبهك؟"

احتفظ شهاب بابتسامته العريضة قبل أن يضيف:

"بصراحة، لم أعلم بولادة زوجتك إلا منذ قليل. أمي هي من أخبرتني. لكنني كنت هنا قبلكم جميعاً؛ فـ نور ولدت وأنجبت صبياً."

اغتسلت الدهشة في عيون الحاضرين كالمد الذي يكسر السكون، بينما والدا عربي وشهاب اللذان كانا عند ولادة نور ابتسما بسعة صدر. كان شهاب قد أخبرهما وأخبر والدة نور، وياسمين التي كانت حاضرة أيضاً.

لتسأل سيرين بدهشة:

"كيف ولدت الآن، ما زالت في الشهر السابع!"

أجاب شهاب بابتسامة:

"نعم، لكنها وضعت مبكراً لأسباب صحية. كلاهما بخير وبصحة جيدة."

دخلت ياسمين مشرقة قائلة لأنس وابتسامة الخالة الجديدة تعلو محياها:

"أصبحت خالة."

ضحك الجميع ومع قرب ياسمين باركت لمليكة بنظرة دافئة. ليوجه عربي سؤاله لشهاب:

"ماذا ستسميه؟"

تحدث شهاب بروح مرحة:

"كنت خمَّنت أن أسميه على اسمك، لكني خشيت أن يرث طباعك فغيرت رأي."

الضحكات عمت الغرفة مجدداً قبل أن يتابع شهاب:

"سأسميه سند، سند شهاب، سيكون سنداً لي ولوالدته عندما يكبر بإذن الله."

تجمعت فيهم مشاعر الإعجاب والبهجة ومنحوا البركات للطفل الجديد. ليسأل شهاب بسؤال مماثل:

"وأنت، ما الاسم الذي اخترته للطفلة؟ أم أنك تركت قرار التسمية لمليكة؟"

تحلُّ لحظة صمت وترتسم على وجوه الجميع تعابير الترقب؛ عيونهم تتنقل بين عربي ومليكة كمن يشهدون توقيع عهد جديد.

يتطلع عربي نحو مليكة باحثاً عن الجواب في عينيها، تلك التي تتحرك فيها قصص وجدانية لا تُحكى. بصوت يكسوه الشفافية تخبره مليكة:

"أنت قرر."

يغادر الصمت الغرفة ليحتله سكون مسرور، ويقبل عربي طفلته وقد احتضنها بذراعيه في عناق يحكي عن بدايات وأمل. وبهدوء صاخب وأحاسيس تتحدى الوصف ينطق بكلمات تُخلِّد اللحظة:

"سأسميها غرام."

تُركز جميع الأنظار على مليكة التي تجلّت فيها ابتسامة ناعسة بين الأمل والقبول. هزت رأسها ببطء كمن يصادق على حلم، فشهقت الغرفة بنور متزايد، وعادت الحياة لتنسج خيوطها بينهم.

عربي، يراقب مليكة بعيون لامعة بمحبة بالغة، ليؤكد باسمه المختار وهو يهديه للصغيرة:

"غرام عربي."

***

تدور رحى الحياة بنا، تطحن بكراتها حلو اللقيا ومرار الفرقى، تقذف بنا تارةً إلى عنان السماء فرحاً وتهوي بنا تارة أخرى إلى أغوار الألم. ومع ذلك ما زلنا نتشبث بخيوط الأمل، بِغدٍ مُشرق يبدو خلف الأفق.

روايتي، ربما أخذت منحىً إلى شطآن الوجع أكثر من دروب السرور، لكن بعد أن طُويت أوراقها، بتنا نؤمن بوعد حياةٍ عذبة، حيث يُصارع الأبطال تيارات القدر العاتية.

الحقد والانتقام استوليا على فصول الرواية بل وطغيا، لكن سنابل الزمان استوت حاملةً معها الصبر والسكينة، لتُخمد نيران الغضب وينبت زرع السلام.

عربي، بطلٌ بين صفحات القصص، كان الانتقام صراعه الأزلي، ممسكاً بذلك اللهيب في باطنه، لكنه لم يهوِ إلى الهاوية، رويداً رويداً أطفأ النيران بمزيد من التروي والتسامح. كانت تهديداته بها تُطلق للريح، بينما كنان ففي صمته كان الفاعل، اليد التي تدفع عجلة الانتقام فصلاً بعد فصل.

وكأن سيط الانتقام كان لعربي والفعل لكنان.

وكقصيدة لم تكتمل أبياتها، غادرت غرام، تاركة الفراغ العميق الذي ينبض في الأعماق، مخلفة وراءها طيفاً يرفُّ على أطلال الذكرى، باقية ودائمة كقصيدة العشق التي تُتلى بالحب والأنين والشجون.

****

تمت بحمد الله.